مفتاح العمّاري

حياةُ الظلّ

نصوص

- **مفتاح العماري**
- **حياة الظل**
- الطبعة الأولى: يناير 2013
- رقم الإيداع المحلي: 673/ 2021 دار الكتب الوطنية بنغازي.
- رقم الإيداع الدولي: ردمك ISBN 978-9959-25-572-3
- **وزارة الثقافة والمجتمع المدني- ليبيا**

بين الوردة وتاريخها

ماذا يعني موتُ الشاعر يا شريكةَ صوتي
سوى غياب الضوءِ الأثير عن جهةِ الحلم
وسماء المخيلة.
حدوث خلل ما في العلاقة بين الوردةِ وتاريخِها.
انقطاع الكهرباء عن منزل الطمأنينة؛ وقد اســتبدّت مواســمُ
القتامِ بلغةِ العائلة
وأيضًا إهمال الحديقةِ وتركها رهنًا بدورات الغبار.
موتُ الشاعر يا حبيبتي
يشي باختفاء نضارة المعنى عن حياةِ لغةٍ بأسرها
وقد أمست رهنًا برفات الذاكرة،
حيث ستفقد المعرفةُ زوّادةَ السفر وهبةَ النار.
وبعد حين ستضيع سلسلةُ مفاتيحنا،
وتتهشمُ العديدُ من البراهين؛
كالأكسجين والموسيقى وبصيرةِ الماء،

أشياءٌ ناعمةٌ ورحيمةٌ وضروريةٌ جداً
لكي نستمرَ في كتابة رسائلنا
وهندسة خرائط عطرنا.
لكن عوضًا عن مديحِ الموت،
دعينا إكرامًا للتفاؤل
نقترحُ قصيدةً جامحةً تخرجُ من لدن رمادِها المبارك،
لعلنا نتيحُ لأجنحةِ الحبر أن ترسمَ غيمةً حُبلى/
أو نطلق رماحَ وهمنا في أثر كلمةٍ ضائعة،
ثم ننتظرُ دونما سأم أن تهطلَ الألوانُ الطازجةُ
من شرفةِ الشمس،
وتنزف الموسيقى من الشفاهِ الحارةِ،
أن يستيقظَ الأطفالُ كل صباحٍ
وقد تنكبوا حقائب بهجتهم.
لأن الشاعرَ مهما تقرحت رئةُ خيالِه
سيظلّ مقيماٍ في هذه الرؤيا أو تلك،
يحفرُ في خزانةِ الروحِ وطنًا صغيرا،
باذخًا بالأمنيات المترعة بكرامةِ النور.

موتُ الشاعر يشيرُ إلى حياةٍ أخرى يا (موني)،
يشيرُ إليكِ يا سلطانةَ فقيدِها وأنتِ أكثر ضراوةً وعنادا،
تعتقين الدلالات الأصيلة،
وتقطفين الصورَ النضرةَ من مجاز عراجينها المرحة.
تؤثثين فراغكِ اعترافًا بما يولد،
وتهبين حبلكِ السريّ للمدينةِ ذاتها التي جوّعتك حقولُها،
وما حصارك سوى عتقٍ إضافيّ لرئةِ المعنى
يا رفيقةَ سرّ وملكةَ غيب.
أنت قبرُ الشاعر ورحمُه،
مهما تغضبين ستظلّ رحمتك تظلل تيهنا حتى نصحو،
وقد صرنا الروح والجسد.
لأنك الوحيدة؛ سهام القصيدةِ وقوسها،
بينما تنامين يستيقظ شَعرُك مبلولاً ببخار الدلالاتِ الثريةِ.
لا شيء يغيّبك عن مهرجان المستقبل،
لأنك المستقبلُ ذاته.
وما من ريحٍ تهزّك أيّتها الشجرةُ إلا مشيئتك حين ترقصين،
مبتهجة لأمرٍ فيكِ، لا في الريح التي خديعة نفسها.

لأن الشعرَ يقطنُ جنّة الروحَ، لا خرائب الجسد.

وأنت حياةُ الشاعر، لا موته/

ونحن حين نهتف: يحيا الشعر،

إنما نمجّدُ الوطنَ العظيمَ الذي

يُؤوي الوردةَ وتاريخَها.

حياةُ الوهم

" غلّقت الملوكُ أبوابَها وبَابُك مفتوح "

_ أبو يزيد البسطامي _

(1)

الكلمة فخٌّ:

تظنّ أنك تصطاد المعنى فتغدو فريسةً له.

لأن "كل صمت لا يحتوي الكلام لا يعوّل عليه"*

هذا هو مأزقُ التيه الذي لا أين يشير، أو يُشار إليه.

لست العارف وأنت العارف.

كلاكما يرتدي الآخرَ ويتبرأ من سوءته.

كلّما ضاقت الكلمةُ بعيّها اتّسعت ضراوةُ عقدتها التي مآلها أن تتفتّح بهيئة فراشـــةٍ أو زهرةِ عبّاد شـــمس، غير أنها كلّما توهمت فيضها، كشفت عن نرجسةِ فتنتِها بنفسِها.

إذن لا شيء هنا وكل شيء. محض ضحكٍ يُفصح عن بكائه، أو كما يشـطح البسـطامي: "لم أزل أبكي حتى ضـحكت، ولم أزل أضحك حتى صرت لا أضحك ولا أبكي". هنا أو هناك، لك أن تقرأ كما يحلو لك. لكن لا تبرح النصّ خشية أن تقعَ فيما لا يُحمد تأويله، فتمســـي ملْكَ براثنه. حينها قد لا تشـــفع لك معرفتُك الواثقةُ تحريكَ ساكن.

(2)

لأني وُهبت نعمة الجوعِ أدركتُ أن الشبعَ نقمةٌ.
لهذا انتظرتُ الغائبَ طويلاً، وحين لم يأت ذهبتُ إليه.
انتظرتُ من الألف إلى الياء جناح رحمته،
انتظرتُ دهرًا. ليس شغفًا به أو بالانتظار أو نحوه؛
بل تلهّفًا للمتعة التي تحذو حذو برهانه. كذلك نحن.
لأن ما ننتظره قد لا يكون بهيًا كما كنّا نتوهم؛
فثمة هنا، أعني في هذا اللعب الذي يســـتدرجنا نورٌ بقامة ملاك خادع.

لهـذا مـا تظنـه حلمـاً في طريقـه إلى التحقق ليس من المســتغرب في شــيء، أذا ما فوجئت بأنه محض كابوسٍ مخيف، فـالكوابيسُ مثلمـا الأحلام، هي الأخرى قرينـةُ نومٍ. لكن لكي يظل الجميلُ جميلاً، عليك أن تســتيقظ، لتعي أكثر من مرة ترّهات طبيعة الكلمة الخادعة. لأن الجمالَ الذي تضـمره القصـيدةُ يظلّ جمالا بتوطينه في بضـع كلمات. لكن حالما يغادر متنَه ســيفقد عظيمَ بهائه. لا ريب، في أنّي ألمّحُ لبهاءِ لَمْ يُوجد. وبذا مهما انتظرت أيّها القارئُ الغافلُ لن تحصــل على روحِ المنتظَر الذي تفتّش عنه. حينها لن تخســرَ شــيئًا ســوى جهلك إذا ما اكتشــفت في نهاية مطافك جريرةَ وهمِك. هذا هو السرّ.

(3)

لا بأس، طالما ثمة في الإمكان أن تستأنف رحلتك من جديد. الحيـاةُ تحتمـلُ عبورَ الحمقى إكرامـا للأذكيـاء الـذين يتقنون أدوارهم باقتدارٍ شديد الحنكة. غير أنه لا يُعدّ عارًا في شيء أذا ما خُدعت. فالعارُ أشــرسُ كائنات التجربة، وأنت لن تمسّ هذه الفضيلة إلا إذا انتظرتَ أطول مما ينبغي، إلى الحدّ الذي تســتشــعر فيه: أن من يحيطون بك قد ســئموا حياتك، حينها

ستصل إلى قرارك الحاسم في أن تتحقّقَ، لا بمشيئتك أنت أو خصومك؛ بل بمشيئةِ الألمِ وحده. لكن ثق أيّها العارفُ المخلُّ أحيانًا بنظافة متنه، ثقْ تمامًا أن العالمَ بأســـره هو الآخر ينتظر؛ ولهذا نحن نُوجد.

(4)

أن تحبّ، هذه أيضًا مثلبة ضرورية ستلهث خلفها، لكن بمجرد أن يصـــدمك الحائط توقّف قليلا، لا لتعود إلى الخلف، بل لتحلق أبعد مما يُؤمل. فأنتَ أيضـــًا لك شـــيطان في جيبك، يمكنك أن تلجأ إليه عند الحاجة. هذه هي المســـألة. لأن ما تتبعه لا يوجد في نفســـه بل يوجد فيك، هو داخل كهفك لا خارجه، لأنه يســـكنك ويتمخض عنك لا عنه، هو فكرتُك لا فكرة شـــريكك في الثيابِ والســـفر والمفاتيح، (ما تقوله، ما تعرفه، كله نابع منك، اعرف نفســك فقط، لأن هذا الأمر أكبر مائة مرة منك) ** فأنتَ في كل الأحوال تجسّدُ سيرةَ وهمِك/ ومعركتُك التي تُظهرها، هي في حقيقة أمرها تَحْدثُ داخلك. فلا بأس أيّها العارفُ أذا ما أشـــارت عليك الفاجعةُ باقتراح محطة أخرى. هذا كل شيء، لكي تتحقّق أبحث عن نفسك، ولكي تعثر عليها، أبحث في لغتك لا لغة الآخرين، حتى لا

يختلط شعيرُكَ بقمحِهم، فالحياةُ قصيرةٌ أيها المشاء، والوقتُ حادٌّ كما يُوصي أبو حيان التوحيدي، فكن من حدّته على حذر.

(5)

وأنت تتألم عليك أن تعي: أن تتحقق من شـيء قد لا تتفطن إليه.

في هذه الحياة لا غيرها، ثمة من ينجح، ليس لأنه جديرا بذلك بل لأننا نفشـــل. لهذا يتفوق الجبناءُ ويتســـابقون إلى الغنائم بعد سـقوط من كانوا يتقدّمون الصـفوف، وهكذا قد يتعاظم الخســـيسُ ويمســـي نبيلاً. وهذه واحدة من مثالب النصـــر عندما يُمســـي النكرةُ معرفةً ليصـــعدَ المتخاذلُ على درجاتٍ، نورُها مِنْ حَطَبِ الغائبين.

(6)

إذا اســتطعت توجيه مســار الألم إلى وجهة أنت تدركها، هذه أيضــا فضــيلةٌ مثلى، قد تنتصــر أخيرًا ولن تعوزك الحيلةُ لأن تكون أنتَ، لا كَمَا أنتَ، لأنكَ حين تكون أنتَ كما أنتَ دائماً، تصير معضلةً تُشبه الموت.

(7)

أحيانا مثلما نتعلّم من اتســاعنا نتعلم من ضــيقنا. والعزلةُ لن تتحقق فقط بســتة جدران تكتنفها ظلمة، لعلّ تحققها الأقوى أثرًا والأعمق إعجــازًا يكمنُ في مَــا لَا يُحــدّ من الآفــاق والعواصــم المضــاءة بالضــحكِ والحكاياتِ والنجومِ. هل أنتَ كما أنتَ؟ لا أظن ذلك وإلا لن يتغير شيء في هذا الكون. ثم هل أنتَ كما تعتقد أنكَ أنتَ. غير أنك مهما تعتقد أنكَ أنتَ، أنتَ: لن تصــل إلى حقيقتك التي تشــيرُ إليكَ أو إلى كل جهات الملحِ والطحينِ والحلمِ والنشيد. لا مفر إذن من أن تكون أكثر جرأةً على اقتحام نقيضـــك. من هنا تمتصّ الندرةُ وحدها عصــارةَ الكثرةِ. ومن ثم لن يكون البقاء كما يُشــاع للأقوى، بل للأجدر استحقاقًا، والذي قد يكون هشًّا، ولعلها هنا تكمن قوته. أحيانا تظلّ الهشــاشــةُ هي كل ما نحتاجه لكي نصــمد. ولا أظن بأنك في حاجة لأن أذكّرك بمجازات شــبيهة للوتســو والنّفري، وربما طاغور، أو ذلك الأعمى طويل الاســـم الذي أُحبّه كما لو أنه من نســـلّ أمي، أعني الأرجنتيني الذي رغم نباهة تناصـــه وحذاقة خياله اســـتُغفل من اقربِ الناسِ إلى قلبه. أشــيرُ في هذه المثلبة إلى محنة صــانعِ معجزاتِ الســردِ الأسطوري (بورخيس)، ولعلّهم جميعًا كما

أظن قد لمّحوا: أن الخيال لن يكون خيالاً ما لمْ نخنه، مثلما لن يكون الجمالُ جمالاً ما لم نسـبغ عليه شـيئًا من نسـغنا، لكيلا نصبح كما نحن دائما، بل إلى ما يُتاق إليه. ليس في كل عام، بل في كل جزء من القصـيدة علينا إذا لم تحدث الآلامُ أن نبتكرها، مثلما علينا صناعة الحروبِ والقلاقل والثورات من أجل شـيء لسْـنا في كل الأحول ملزمين بفهمه. يومئُ الجاحظُ: هناك اشـاراتٌ سـتظلُّ ملقاة على الطريق، دائما عليها أن تنتظر.

حياةُ الماء

في البدء كان الماءُ،
يسري في عروقِ الحجر وقنواتِ الريح.
يولدُ الماءُ عارياً، وينشأُ عاريا.
يعيشُ في بيوتٍ من جرارٍ وجلد، من عنبٍ وقصديرٍ ووحل،
ينامُ في فَمِ صبيةٍ بعد سفرٍ طويل،
ولا ينام حين تتحسّس أناملُ شهوتِها لحاءَ ذكورته.
في قاعِ بئرٍ،
ولا ينام إذا مرت أغاني الرعاةِ قربَ سريره الفضيّ.
في زهرةٍ تنتظر.
في إعصارٍ يقتلعُ الغابات والمعاجمَ من جذورها.
في قصيدةٍ تُولد،
ولا ينام إذا أعلنت الصحراءُ نفيرَها.

في سماء،

في شوارع وكلمات وشرايين وأشجارٍ وجبال.

***

حياةُ الماء لا تتوقف عن إثارةِ الموسيقى،

حياةُ الماء لا تستسلم للكتابة بلغةِ الأرقام،

لا تُحدّ.

حياةُ الماء، في الصيفِ أكثر عنفوانًا ولذة،

في النهر: كل هذه المرأة الجميلة ملكي.

في البحر: كل هذه الدّرر،

وهذه الأسرار والأناشيد من بعض كنوزي.

كل حديقة تعطيني ألوانَها وذاكرتها وأساطيرها.

كل الأعشاش تطلقُ أحلامَها في أثري.

أنا حياةُ الماء.

برلين / خريف 2009

* من رسالة (الذي لا يعوّل عليه)، محي الدين بن عربي.

** من (منطق الطير) فريد الدين العطار.

سيدي عبد الجليل

(1)

اخفض جناحَ رحمتك

طارتْ لُغتي.

(2)

كنتُ منهمكًا أو بالأحرى مغموســًا حتى النخاع في عجينةِ ألواني أرســمُ صــحراء أعرفُ خباياها، حين اهتزت النافذةُ فجأة وانفرجت ظلفةُ زجاجها عنوة، إثر جلافة زوبعةٍ عنيفةٍ اندفعتْ خلالها سياطُ المطر بقوةٍ إلى داخل غرفتي، وانهالت بوقاحة على لوحتي الآمنة. ســاورني خوفٌ على صــحرائي التي تأرجحَ متنُها، حتى كادت أن تَسـقُطَ، لو لَمْ اهرع مسـرعا لأقفال النافذة. كانتْ تمطرُ في (أومْرومر شتراسه). غير أني

أدرتُ ظهري لعربدةِ أمطار برلين، وزوابعها التي تزمّجر كيف ما يحلو لها، بلا مواقيت. وولّيت مرتابا، ومشفقا على صحرائي التي لم أكمل بعد تأثيث فضـــائها، وفعلا قد حدث ما كنت أخشـــاه، ثمة بقع متطفّلة من ماء متآمر بللت عنجهيةُ غزوه نسيجَ مخلوقتي، التي غدت مثل حبّة رمل شاسعة تسيل في حزن، دمعة كبيرة تتحدر صفراء ورمادية تاركة خلفها مسارب من فراغ ينزف. وقد حفرت درويا متعرجة، وشـــكّلت أطيافا عشـواء تبدّت شـبيهة حيوانات ممسـوخة تورّمت على عجل، وما يشبه أكواخ صفيح مترهلة وقباب أو هي أكوام رماد كأنها من نفاية صـوف ولطخات أبواب لم تكتمل، وإنصـاف نسـاء، وربما خراف تائهة عن مرعاها وأطفال ضـــالين لم يُحســـن تربيتهم، تفّرقوا مثل فطر وروث. وأشكال تتحول من منحنيات إلى هضـاب أو سـحب باهتة. وأيضـا ثمة هنا ما يُوحي بهيئة قطعان شـــاردة من دخان متربّص، وأشـــجار تتخفّى بهلامية حقول كالحة، غير أن ما يمكن تخمينه أن شـمسَ صـحرائي رغم تمزّقها، ظلت قاســيةً، تحتفظ بســطوعها المبارك الذي يمحو بخفة غيوما وينصـــب أخرى. كنت حائرا وقلقا، فلســـت أدري كيف أستردّ ملامح صحرائي التي أعرفها قبل أن يغزوها المطر، أعني قبـل تلـك العنوة التي انتهكـت نـافـذة غرفتي واستباحت خلوة خيالي. فكرت بعد أن أحرقت سيجارتين في كيفية استدراج علاقة لونية تنظّم تلك الفوضى

وتهبها وطنا مشـــتركا، لعلّي هكذا كنت أزعم حين غمســـت فرشـــاتي لأول مرة في طاس الطين، لتســـفر لطخ ألواني المرتبكة عما يوحي بوجه طفل منبوذ، ظل لبضـــع ســـاعات متروكا لعبث اللحظة الغاشـــمة، صـــار كلانا ينظر إلى الآخر، والذي على الرغم من صـــرامة نعاس عينيه، انبرى لي عبر رشقات تفرّسه كأنه يتوسل بإلحاح لا يقاوم، أن أشمله بجناح رحمتي. ولمّا تمعنت مليا في هيئته لامســـت هول جريمتي النكراء التي ارتكبتها دونما قصـــد منّي، فقد كان الطفل بيد واحدة تبحث عن شقيقتها، حينها آلمني سهوي المخلّ بفداحة تلك العاهة، مشـفقا على صـغيري الأكتع الذي ينبغي إنصـافه دونما تردد فرســمت على عجل اليد المهملة التي تأخرت في معرفة ما إذا كان ثمة شـيء في قبضـتها، حيث تبين لي في ما بعد أنها تمسـك كسـرة خبز، لتبدو تداعيات معالم الصـورة أكثر لؤما وهي تدحرج ذاكرتي إلى حي قديم تهدّمت أركانُه واختفى ســاكنوه وانقرضــت أكواخُه منذ نصــف قرن .. فلم أسـتطع التريث، فقد انطلقت فرشـاتي تنسـج ظلالها القاسـية وألوانها الحارة راقصـــة بخفة هوس لا حدود لمتعته، وهكذا تورطـت رغمـا عني في ترهـات تلـك البقع العشـــواء التي رسـمت نفسـها بعد أن باغتها البلل. لحظتها رأيت ما يمكن أن يكون واقعًا حيا يعيدُ تخريطَ ملامحه بمهابة لا مناص من طغيان أشكالها. وحين عدت إلى الطفل الذي غادرته قبل

هنيهة جالسا على عتبة باب لا يفضي إلى شيء. أقمت جدارا من طوب ليكون البابُ باباَ لا غبار عليه، ثم أقبلت على الصغير مستدركًا تظليل وجهه بما يكفل تشكيل ملامح بشرية بريئة، فصار يَظهرُ لي بوجوهٍ عديدةٍ لأشخاصٍ أعرفهم ويعرفونني، فلعبتُ مرارًا وتكرارًا عابثًا بمسارب الوجه، مُتعمّدًا تشويه ملامحه، ولكن قد ذهبتْ كل محاولاتي سُدى، ففي كل مرة يغتصبُ ذلك الوجه الصغير وجوهَ معارفي وأترابي ورهطي، حتى كاد أن يغلبني على أمري، أنا الكهلُ العليلُ، أصابعي ترتعش كلما اقتربت من استدارة وجه المخلوق الضئيل الذي لم يكن قبل سويعات سوى حبة رمل تائهة ونثار جافل من مطر دخيل. لذا قررت في نهاية المطاف أن أضع حدا لهذه الحماقات اللونية، فمنحت ذلك الوجه خطوطا ذكية وظلالا مخادعة حتى يكون أكثر شبها بوجهي. عندئذ راق لي إضفاء ما يجعل فضاء الحي عامرا بالحياة. ولم تعزني حيلة الفنان الدربة الذي يحترم تقلبات مزاج فرشاته، ويقدّر بإجلال طبائع الألوان وخصائص عناصرها التي من مواد مرنة، سيما وأن معظم الأسماء والأشياء هنا تصنع نفسها بجدارة واثقة. بحيث لم يكن على فرشاتي سوى تلبية الرغبات التي تُملى عليها لتتضافر نعومةُ

الأضــواء وطمأنينةُ الظلال في اســتدعاء البشــر والشــوارع والدكاكين من دون أن تغفلَ العناية بضــريح الولي الصــالح "ســيدي عبد الجليل" ذي الجدران الوديعة والقبة البيضــاء، مزدانا برايات خضــراء، تَحضُــنهُ ثلاثُ نخلات تطرحُ كلّما هزت الريحُ عراجينها بلحًا لذيذا، وطريا يلتقطه الصــبيةُ العابرون بشــغف مرح. أعرفُ الكثير ممن ســكنوا هنا ، أعرف ســي الدُّوكَالي بائع الفحم والكيروســين ، والخباز الفَزَّانيّ، وخالتي شــميســة التي تنظمُ عقودًا من خرز العقيق وحبات المحلب بعطرها الفوّاح، والسويح الخضّار، وأعرف عسيلة التي أحبها كما أحب أمي وجدي الأعمى، اعرف الدّبَصْــكي صــاحب الدكان، كذلك الشـرطي نافع وزوجته المصـابة بداء السـكري ووهن الركبتين، وســالم الأعور، وخديجة الســمينة، وبالعيد الذي يفضل أكل سنام الجمل، وأيضا ثمة أسماء أخرى سوف يأتي ذكرها عندما تسـتعيد ذاكرةُ لوحتي ما خفي من أسـرار كائناتها التي لا حيلة لي في طمس أخبارها. كنتُ أتحايلُ كعادتي حين تَطغى أوجاعُ جســدي، فألجأ لغواية فرشــاتي وأرسـم ما تسـتهويه الألوانُ فأتبعها، وقد صـرت منقادًا بنشـوة اقتفاء مخيلتها هي، لا مخيلتي، مسـتسـلما لانسـيابها وتدفقها وجموحها. لكن حين ظهر ذلك الطفلُ فجأة بعد زوبعة عابرة

تحمل مطرا وريحا، توجستُ نكدا طارئا، وغمرتني كآبةٌ فادحةٌ لا حدود لحزنها، وكان لزاما عليّ بعد أن وهبتُ الصـــغيرَ ما يُشـبه وجهي طفلاً، أن أقترحَ له الاسـمَ الملائمَ الذي ينسـجمُ مع قسـاوة سـحنته وصـرامة نظراته المشـغولة بشـرودها، مترصّـدا أن لا يُشـيرَ أسـمُه إلى أية شـبهة قد تلتبس بأنسـاب سـلالة أهل حي سـيدي عبد الجليل الذين أخشـى مغبّةَ وسـاوسـهم وضـراوةَ ظنونهم. سـميّته (مِصْـبَاح)، ربما تفاؤلا، وربما شماتة وتشفيا من ذكرى كريهة لجندي ابغضه، كان في يوم ما ينادى بالاسـم ذاته، الذي أمسـى أسـما منسـيا، فما من شـيء البتة يمكنه أن يلمّح إلى ذلك الجندي النكرة أو يشـير إليه، سـوى هذا الاسـم الذي اصـطفيته لطفل لوحتي، بعد أن تشـكّل سـمته كما تعلمون من غرابة ريح ومطر وجينات رمل ونكهة طين. سـأغادر الآن (مصـباح) جالسـا على عتبة الريح تلك، واعدا بأن أتوقف على مهل في لوحة أخرى، وبألوان لمّاحة تليق بحكايات حي سـيدي عبد الجليل التي صـاغتها أهواءُ الصدف.

(3)

ما تفرقه اليقظةُ

يجمعه النوم.

ما تبعثره نزوةُ الريح

يلملمه ماءُ السبيل.

فاتركيني لوجعي قليلا

أريد أن أنام .....

(4)

رأفة بالبهاء أهبكِ دهشةَ هذه اللوحة الآمنة

لتوقظي نساءها الفاتنات ريثما أرتدي قميصي

وإذا كنتُ سعيد الحظ سأجد سريرا في مستشفى

أو حكاية خالية من الشبهات

أو بحرا أغرق في غموضه

أو ممرضة مغتربة تتلهف لقبلة نظيفة.

سأغادر هذا العشّ النادر

بكل ما يزخر به من قصائد وأطفال وكتب وحدائق ونجوم،

وأهبكِ خيالا من حنين

وسماء هجرتها الألفة

وكل شيء اقترفته بكبرياء الشاعر وعزلة العليل

سيغدو ملكا لكِ.

لن يردعكِ أحد عن ترهات الغرف وضوضاء النوافذ .....

لك المفاتيح والأيام والأعراس والفساتين والعطور

والخزائن والجدران والطحين

لك الشوارع والمديح والفصول

لك أن تتركيني قليلا

أريد أن أنام

لن أحمل معي سوى خيبتي وحذائي وعلبة سجائري

وما أخبئه من نسيان، يكفي لإغفاءة أخيرة.

أريد أن أتحسس ندوب تجاربي وتقرّحات وحشتي

وهي تنزف على وسادتي

من دون أن أعبأ بما قد تضمره الريحُ الخبيئة من مكر ونباح.

لقد تعبت يا تعبي.

سأمزق صوري وذكرياتي وعناوين حروبي،

وأتخلّى عن كل ما اذخرته من حبر وغيوم.

(5)

هذا كل شيء.

قدماي باردتان،

ولم اعد أفكّر في استئصال المزيد من الأورام والأكاذيب.

فقط أريد أن أنام.

طفل في الريح

(1)

ما أن ولجت درب مقام الوليّ الصـــالح ســـيدي عبد الجليل، حتى أثار انتباهي صـــرير عجلات عربة (الورّاد)، يجرها بغل متصـــالب، منحدرا باتجاه الأكواخ المتاخمة. لم أعر في أول الأمر عبارة (الورّاد) العابرة أية اصـغاءة فطنة، كنت مشـغولا عن صـيحات شـطحه المعتاد، أسـتعيد بفضـول دهش بعض ملامح لوحتي التي رســـمتها منذ زمن، وقد صـــورت بألوان لاهبة هيئة ذلك الطفل الذي يجلس خائفا، وهو يتململ في مطرحه، هكذا لاح لي في الظهيرة المتفاقمة، وأنا أمشـــي بمحاذاة ريح وهّاجة تنفث حمما من ســـعير، في يوم بائس ومهدّم. لهذا أكره الريح والكذب والخديعة، ربما لأن الريح كانت تتفاقم دون هوادة حول حواسه الشاردة. أو لعل

مشهد الطفل وهو يفكر، ربّما بطريقة غامضة في أيجاد حيلة ما للخروج من حفرة القيظ تلك، من وساوس العزلة والسأم: عيناه ظلمة مبللة، ويداه ناعســـتان بنعومة على ركبتيه، حيث لاشيء يمكن انتشاله من حضيض النظر، فثمة قساوة فجّة في هذا الركن المهمل من لوحة العالم، ينبعث صـــداها من خلف الجدران، تشي بوجع وصراخ وصحون تتكسر، لهذا لن يسعه أن يقف دون ضجة، أو يمشي، أو يفكر، بصرف النظر عن ضوضاء فضول نوافذ موارية، وأصداء أغنيات شكسة، يمكن أحاطتها فيما بعد بالعاب طفل، ومزاج صـبي مراهق، وعربدة جندي يناوش فتيات يحلمن بعرسان مرتقبين، لا تخلو من وشوشات ترصدها شباك حقودة. الطفل الذي أراه في هذا التذكّر البعيد، لم يكن طفلا وحيدا وحســـب، بل كأني أعرف خيبته، ربما لأن كلينا كان يبكي على الإيقاع ذاته، كان يتفطّر حزنا، أو ربما يذوي في داخله، وينوء بأكثر من فاجعة. الطفل الذي كان شـــبهتي وشـــبيهي، أنا الذي رســـمت هذا الطفل في يوم ما -لا أنكر هذه الحقيقة رغم مفارقتها -سيما وأن سحنته الشاردة تشي بأنه دائم اللعن، وبصخب فاجع يرزح تحت وطأة طالعه الســـيئ. بدا كأنه منذ زمن ثقيل وهو يجلس على عتبة خاوية

أمام باب مقفل، باب وضـيع ينذر بكدر شـديد القتامة. وحيداً ظلّ الطفلُ الذي أراهُ يلوكُ كسـرةَ خبز مغموسـة في الزيت، وينظر بحياد إلى المارة والعربات. بعد قليل فزعت عيناه اثر صعود شرس لصرير عجلات عربة (الورّاد)، وطفحتا بما ينبئ بتمزّق غامض، في حيز خفي من ظلّ ذاكرته الغضّة، لكنه ما لبث أن اسـتيقظ من خطفة الوجع تلك، لحظة انفراج الباب عن امرأة عجوز ترتدي فراشـية متّسـخة، رأيتها منحنية قليلا تمرق بخفة صـلبة تحت عبء غنائمها، وقد طفق يتبعها الطفلُ تاركا خلفه كسـرة خبزه ملوثة بالوجع فوق عتبة الباب الذي قفلته يد مجهولة بتهذيب معلن. يد بأصابع صبغتها حناء تزهو بنضارة خجلة. قال العابر وهو يشير إلى المرأة العجوز التي تضرب على عجل: كانت تلك خادم الشر، لهذا أتحاشى بكل ما أوتيت من حيل، أن لا تراني، أو ينتبه الطفلُ إلى فرشاة الرسم فيرتاب، و الذي كما يبدو من تعثره لا مناص له من التشبّث بقسوة الأصابع الخشنة لئلا يقع. يا ترى إلى أين تمضـي به الخطى دونما رأفة من الجدّة المسـرعة بقفة السعف، لأن الطفل وهو يخبّ محزونا يؤلمه حذاؤه الضيق، عيناه متعبتان من العرق والطواف، قميصـه البالي أصـغر عمرا من أن يستر سرّة ولد في الخامسة. لم يذهب بعدُ إلى

المدرســـة، يلهث موجوعا وقد أمســـكته يدٌ معروقةٌ لجدّة صـارمة هي دائماً على عجل. كنت أتبعهما وأنا أغالب غيضـا ثقيلا يخنقني بقوة، حتى كـاد أن ينفلـت من بين أســـنـاني ويفضح هويتي كسارد ملول، يتحايل على متنه بتغيير الأسماء والضمائر واستبدال صيغ الأفعال. كنت أرنو إلى العجوز وهي تزمجر حـانقـة، لم أجرؤ حينهـا أن أقول انتظري يـا جـدتي حذائي يعوقني بألم، أريد أمّي، أريد كوخنا. لقد تعبت. لأن الجدة حتما سـيغضـبها ذلك، فالمسـالك اللاهبة تتوالى حارة ومغبرة وقاســـية، والحياة تمضـــي، حيث لا أحد يمكنه الآن حدس وجهة امرأة عجوز تجرجر طفلا، حذاؤه ضـيق وقدماه داميتان، لا أحد البتة في مقدوره أن يخمّن إلى أين تمضـــي هذه القساوة، وأن الجدّة قد فرغت للتوّ من نوبة تنجيم بدأتها منذ الصـباح الباكر وهي تطرق أبواب المنازل، وأن قفتها التي هي عبء يوميّ، قد أضـــحت بعد تجوال مضـــن، عامرة بالدقيق وأخلاط (المكرونة) وبعض الثياب المستعملة.

(2)

أعترف هنا، بأن الحكاية تبدو مخّلة أحيانا بشروط السرد، كما أن الراوي عليل وخائف، بعد أن ترعرعت في جهته أورام ماكرة، بدنو تستنفر وضاعة خلاياها، وتطلق حواس فقدها شرهة خلف تاريخه، مقتفية أثر قيامته الأولى، فترنّح في أول الأمر ثملا بأصالة نبيذ ريفي له نكهة جبال أطلس، في الليلة تلك، حشدت رئة السارد جلّ ساكنيها من عوائل البديع، وبسطت كنوز نثرها، لكن الغافل لم يتفطّن في أول الأمر، أن حليب الشهوة تلك خبيثٌ وماكرٌ. ولم يتمهل وهو يسكب عصائر عشقه، ريثما يبصر عن كثب ما كانت تضمره الكلماتُ وهي تخمشُ جلدَ السكونِ في الليلِ البعيد، دونما رأفة بالآذان الصغيرة وهي تنسحق بأسى تحت خبب العتمةِ الضاريةِ سجفَ الخفاء. هكذا، كل الحكايات الحالمة التي نسج الرائي ملامحَ أُلفتها أمستْ تأفلُ خارجَ متن براءتها، لتسلم الفاجعةُ حواسها لمصير الخواتم.

(3)

لا، هذه ليســت معركتي قال الجندي. هذه ســاحة من رماد عقيم، تركت لمشــيئة اللعنات، حقول من ندامات خَرّطت تضـاريسَـها ربّةُ أخطاء، لسـت أدري: لأي ذنب تغزو أسـماءُ الموتى بســاتين كائناتي. ويخســر مطافي أخيرا ضــحك البرتقال. لكنني، ها أنا خارج نومي أقشّــر في كنف العزلة تجارب الفاجعة، نازعا عن غلافها الرخو حراشــف اللغة البائدة، مقلّما براثن القوافي السادرة في غيها، مضيفا المزيد من العسل لمأدبة الذباب. ضاربا عرض تقاليد الصمت الدعية سليلة الهرطقة. منحازا بصلابة الماء حين يغضب، لأسطورة العشـب وهو يفلق صـخر الباطل. لي نسـغ الشـهقة وسـفر البراكين حين تســمو بأوارها، ولن تهدأ حمم فاجعتي حتى أصـقل براءة حدسـي، وبعلو يقيني فوق أسـوار الشـبهات. ســأرمي الأقفال الغبية إلى نفاية حداديها الدهماء. فطوبى لقلوبنا مفتوحة كسماء الطمأنينة. لن يخون الرائي حيا أو ميتا ملحَ محبّيه، وســيقفز طفل العتبة ضــاحكا من رحيق إلى رحيق، وكلما تعثر في حلمه تســنده أعمدة النور، وأينما يمر مزهوا تفرش له مجازات الوله بســاط العطر. قال الورّاد: الأطفالُ فتنةٌ، والنساءُ أوعيةُ منيّ صدئةٍ. لم التفت لهذيانِ

الرجلِ البائس، ولا للمارةِ، وقد شــرعوا يتهامســون بحماقة. فليس هذا بيتُ القصيد. فقط للخديعة شؤون الزجاج المخلّ، وللحرثِ ما يُعيب الطينَ حين تثلمه فحولةُ الريبةِ أو تغادرهُ نضارةُ الأسماءِ الرحيمة.

(4)

قال الرجل العليل:

سمعت الطفل اليتيم خلف الليل يبكي.

فلماذا يا ربّي أصغي لبكائين ضدين،

وأخسر مشيتي وحدي،

هذا الزيف يربكني/

تربكني أيضا هذي اللعبة بين بكائين ضدين

نسيت كل الكلمات التي كان عليّ إعادة صياغتها/ كل الدلالات ظلت متروكة خلف شرودي/ لم أعبأ كثيرا بأول الشرر،

إذ كان لزاما أن أخســر بعض مواقيتي وأمرّ على الفجوات الموبوءة في القيظ، وبلا أدنى شك أعترف بأني كنت أتململ من وجع يتكاثر في لغتي.

وأنا لا شيء بحساب المكر،

فقط أرخي الأهوال حتى تتعثرّ مشيتها/

هذه اللعبة أجيد حبك رصانتها/

فمعجزتي أني موعود بضرورات الكشفِ أخيرا،

وأني حين أفكر في جندلة خصــومي لا أحفل كما يبدو بتبييت خطط ما/

بل كل شيء يُمليه الحدسُ يظلّ تمهّله قمينا بالظفر/

أعطي خصـومي ما يكفي من غفلة الراهن لكي يتجلى ذكاء مطامعهم/

أنا الآن لا أملي سردي كما قد يتبادر لنباهة من يقرأ شطحي/

بل أصابع وجعي تنقر حروف الغيب، لتكتب ما لم أقله/

فلا بأس/

هذه بعض عاداتي، حين أنكتب بين خرابين نظيفين

: نثر عليل يكبو بين الألم وبين سرير من ثلج المنفى/

هكذا رام العليل أورام معاجمه، وهو يشير إلى شيء لم يره الواقفون على رصيف الأيام/

قال: لعلّ وجودي قد أضحى ثقلا يرزح على كتف الخيبة/

كتبت كمن فقد كل إحساس بالنوم/

وبكيت من دون أن أصغي لمراسم موتي.

لماذا يا أبتي بين بكائين ضـدين صـرت أرتبك ولم أعرف من منا كان الميت. هل نمت حقا فرأيت كابوسا ما /
هل جاءوا بعدي وأخذوا كل مفاتيحي وسـرقوا ما صـرفت الدهر لكي أربّي دهشته.
يلازمني الآن صوتي مفتونا بنشيد الغائب/
حيث لا أحد في سـلال النثر يصـعد دون أن تثنيه حرب أو تردعه عاصفة ما. هذا ما كتبته الخيبة في فجر الوجع/
وهذا ما لم أكنه،
بل كان لكي اسمعه يتوارى خلف تخومي/
لابد أن نتشبّث بسروايل الحكمة ونحن نتلبك بين الكلمات/
بين المعنى والمعنى ثمة امرأة تستلقي.
قال الميت: عليك أن تدرك الخروج من باب السـهو، الذي صنعته عبارتك الأولى.

(5)

الحياة تمضـي أيها الولد تاركة خلفها غبارا ثقيلا وحكايات مبقّعة بروث الأيام الخائنة. كم انقضى على عتبة البؤس تلك.

في ذلك الزمن الغارب لم توجد بعد شاشات من فضة تتسع لإيواء البذاءات الجافلة عن ماضـــيها، حين طلع الفاحش من رحم وضـاعته. لا أحد كان قريبا كفاية حتى يمكنه أن يسـمع تمتمة الفتنةِ وهي تهمسُ لنفســـها بلغطٍ ملعون. كانت علب التنك بيوتنا المكشـــوفة على زرقة الله. وحكاياتنا تمرق خارج مســام معدنها، نســمع فحيح الشـهوةِ وبكاءَ الأرامل ولدغات الجوعِ، وأنينَ المرضى، وعربدةَ السكارى. لا شيء يعزلنا عن قدرنا، نشـــربُ الشـــاي وننام. تنطفئ فتيلةُ الزيتِ، وتشـــتعل الأحلام، حيث لاشـــيء في متناول العبارة الآن، فجلّ ما يخشـــاه الميت في هذه اللحظة الخائنة، أن يُعزل الغربُ الحاضن عن شرقه الحميم، ليلتقيا على كبر وقد فصلت بينهما معاجم الرمل والتيه وآبار الزيت، ومذاهبُ العزلة، حيث لا يحمل الأخ عاطفة تجاه أخيه. كانت تلك لعبة قدر نســـجت قماشـــتها بكيد مكين، لكي تظل الخطيئة على مدى الدهر تجترّ لعنة شـــرّها، متكررة في النســـل ذاته، وأينما حلّت تبذر فرقتها في قطع الأرحام، وهي تترعرع في الســـر كأنها تستنسخ نفسها. وهنا سأتوقف قليلا عن سرد تفاصيل طفلي البائس، ريثما أجد مخرجا لنثري، ينقذه من مغبّة هذا النفق القاتم.

مدونة الطير

"أوقفني وقال إن لم ترني لم تكن بي.

وقال لي أن رأيت غيري لم ترني"

-النفري، من موقف قد جاء وقتي-

(1)

في التيه،

ولدَ الشاعرُ والذئب.

سلخ الهدهد ثلاثة فصول،

ليصل إلى تخوم الصيف الخفيّة:

أيها الحكيم، رأيت السّالكَ يخرج من وحل الغافل،

له بلاغة السيف وحدّ المعنى.

رأيت الأشجار أجنحة تنتظر البرق.

والبحر خمس ضفاف للملح.

رأيت الكوخ الصغير الذي رسمته يد طفلة ناعسة

يسبح في سماء صفراء.

في التيه.

قطعوا سرّة الشاعر بكر أمه وذراع أبيه،

وتركوا الذئب يعوي،

فتحوا بريدَ الغابات والأساطير،

وتركوا الذئبَ يعوي،

جابوا الأسواقَ والبساتين، لكي يظفروا برمّانٍ في غير

موسمه،

وتركوا الذئبَ يعوي.

سلخوا معرفة الجبال، وحصدوا حكمة البراري،

ناموا في عراء الفاقة فخورين بالضحك

والذئبُ يعوي .....

(2)

في التيه،

برج ريح،

يستدرجُ المواقدَ لخبزه.

طابورٌ خامسٌ يعمل في سلك

الزوابع خاطفة العطر وبذور الموسيقى.

كل وتر تنقرهُ الخفةُ يتقطّع على ضفافِ الوجع.

(3)

في التيه،

ليس الشاعر حدثا يُحتفى به.

لكن يوم ختانه صادف ذكرى المولد النبويّ،

نحروا جملاً عند ضريح سيدي عبد الجليل،

جلبوا جرارَ الماء من العيونِ النائمة،

وتركوا الذئبَ يعوي.

طافتْ فرقُ الحضرةِ عبر الشوارع الكالحة،

تَقْرعُ الدفوفَ وترفعُ المدائحَ والأعلام.

محفوفة بالصبيةِ والعيّارين والدراويش وحملةِ المباخر.
يُرشّ المنشدون بماء الزهر كلّما مروا بمحاذاةِ الدكاكين.
لم أذهب طويلاً يا مولاي وراء مواكب المديحِ والبخور،
لأن إخوةَ الطير هبطوا راقصين وقد أغراهم السمر،
فالنوم يُعدّ مروقا، لأن القمرَ يُزهر على ذرى الأحلامِ
الفقيرة.
وُلدت النجومُ توائم، وظلّ الحلمُ اخضر.
وزّعوا اللحمَ وفطائر الزيت،
وسكبوا شاي النعناع في طاسات صغيرة.

(4)

في التيه
كَبُر الشاعرُ والجنديُ يا مولاي، والذئبُ يعوي،
لم يهدأ، حتى أضرموا معاجمَ العشقِ، واحترقتْ أَصابعُ
الخيال.
كل عذراء اشرأبتْ خلف الكتانِ حلمةُ نشيدِها.
فيما الثكناتُ ترسمُ خرائطَ النفير.
خفقت الراياتُ الفتيةُ وتدحرج صوتُ البوق.

جنديّ زاحفٌ إلى الموتِ في جيبهِ كلمةٌ،
شاعرٌ عليلٌ في قلبه طفلٌ ينتزعُ لعبته من فوضى الألوان،
في حلقه امرأةٌ تغرز جثةَ الشعر بالدبابيس،
في نسيانه خديعةٌ تكحّل سوءتها بحبرٍ مغشوش،
في عينيه سكبت الشمسُ قارةً من اليقين،
تركت أرضًا محروقةً ونملاً يتعرّشُ بالأهداب.
شاعرٌ أعمى .....

(5)

في التيه يا مولاي: حلّقت فوق منازل العنكبوت،
رأيت ابنة الرماد،
التي خالط دخانها لسان الشعر، وسقف العشير،
واسم الكتاب.

(6)

في التيه

تستيقظ توتةُ فمها هذي الفاتنةُ،

حين تنده يا مولاي:

هي حديقةُ نزوات،

مطرٌ برتقالي،

شَعْرٌ من نارٍ تتلون،

شفقُ وردٍ، في صحنِ قمرٍ مغسول،

تفاحٌ ماكرٌ يحتلّ حديقةَ خديها،

غيبوبةُ حمّى،

موجةٌ وضفةٌ من خلطةِ عشقٍ مخمور.

تَنْدهُ:

خُذني من أعلى ذروةٍ ترتعشُ بين أصابع فخامتك،

خذني ولا تعبأ بعواء المعلولِ،

دعه لوجاره يتلوّى بين خرابين، وأغثني

أنا طريدتُك وكنزُ رحيلِكَ ....

أغثني أيها الباشقُ

ولا تختلط عليّ كثيراً فتضيع بعيدا عن صدري،

أو تخمد فحولتك في غزو أوديتي،

لا أفهمك، سبحان هديرك يا رعد،

يا إبرةَ ثوبي وبرقَ جيبني

يا غايةَ وطري، ومنقذَ جرفي من لغو السيل

لا أفهم:

تصعدُ في أرجائي ضراوةُ نبيذ ك،

رحلةُ شفقٍ أحمر تغمرني.

أنت عشرة: أنا غمدُ سيفك.

أنت المتنبي: أنا مدارُ قصيدك،

قوافيك بعيدا عني،

شتاتٌ من حجّاج يُطوفون بلا كعبة.

سبحانك يا هذا البارق،

سبحان قضّي وقضيضك، كمّلني أوكُلْني

اقبّل سماءَ نعليكَ خذني بأسنانكَ قويًا، ولا تعبأ بعواء الذئب.

أربعون زمهريرًا في بئري،

أنا الشتاءُ، البردُ نشيجُ سُكّاني

فخذني قويًا أني أريدُك،

أريدُ أن ينصهرَ صقيعي في كانونِ جحيمك يا بيتَ النار

أن تتوهّجَ شهقةُ كهفي في عسلِ بركانك

يا جسرَ ماءٍ وجمرٍ بين قبّتين

أين بعثرت فضّتكَ يا سلطانَ الضوء

أنا سلّةُ ليلٍ،

وفاكهةُ سرّ،
أنا فمُكَ
يا كأسَ العابر
فلا تنبذ صدري، فيذبل فستاني،
لا تثمل أيها المخرّبُ هندسةَ النهدِ
خارجَ حانتنا أو تعبث بغمّازة خيالكَ
سكران في شرفةِ ملهمةٍ أخرى
ثم تأتيني تعتعةً،
لا تفقه عطري من عرقي.
خذني، ولا تلتفت لعواء الخلّب.

(7)

بعد قليل يا مولاي
قال الذئبُ،
وهو يقودُ القطيعَ إلى مخيلةِ الفناء
: قفْ يا اسمَ التيه،
مزقتني المساربُ.
وهذا ما رأيت.

حياةُ الظلّ

(1)

إذا وصّف الضوء روحا. قال الظلُ: أنا الجسدُ.

أنا النصفُ الفاتنُ، لا وجودَ من دوني ....

ولا بياضَ خارجَ الأسود الذي أنا،

يتحقّقُ بي وأُعْرَفُ به،

كلانا يَبعثُ الآخرَ من برزخه ويخرجُ من لدنّه.

لا أين له في بعدي، ولا في قربه أيْنِي،

هو بصيرتي وعماي، وأنا له الوطن والمنفى،

إذا خفّ، كلانا يفقدُ الآخر،

وإذا ثقُلَ أسبقهُ على خطفِ البراهين.

هو سقفٌ من نارٍ وريحٍ، وأنا لغتي ماءٌ وطين.

يغيب فيّ إذا حضرتُ، وفي برقهِ يشعّ غيابي،

كلما حلمتُ بجزيرةٍ أو مدينةٍ أخرى، يلتفّ عليها.

وكلما أشعلتُ حربًا يستأثرُ بالغنائم

فأتورط وحدي في دفنِ العواصف وجثث الغيوم.

تكمنُ مسافتي في خيالي

بينما لا يُرى الأبيضُ إلا فراغًا يحميه من نفسه.

يُولد من شغفٍ بي،
وأولدُ مِنّي حيث لا بياضَ يحجبُ صوتي.
بدايتي تعلو، فيما السقوطُ جريرتُه.
تصعدُ الأشجارُ من نطفةٍ في الظلام.
أنا حياةُ الظل. رحمهُ وغلافُه.
لا يهبط النورُ من دونِ سعتي.
الداخلُ صوتي والخارجُ صداي.
أنا سرّةُ الألوانِ ومحيطُها،
لا مكان خارج ظلامي،
ولا مسافة غير سفري،
أينما أذهبُ، الكائناتُ تذهب،
أنا الأصلُ: العناصرُ أنفاسي وعُشبي
تذوبُ في نسغي وتختلطُ بي.

(2)

فيما مضـــى كنت مجرد تابع للشـــبح الذي يتركني قفيَ لهاث، أعني المخلوقَ الضئيلَ بمشيتهِ الخائفةِ من شيء لن يتحقق إلا بـإعلان ولائي لـه ووفـائي المنقطع النظير لنســـبـه. قـد تظنونني كلباً كما تُعلن زوبعة الذباب التي حطّت على قفير عسلي، تلك الريح الموسوسة التي ما تفتأ في كل صراخ عابر إلا وتمعن في نعتي بهذه الصـــفة المقيتة. حتى كدت أظنني

كلبا، لكنني -وهذه حقيقة لا تقبل الجدل – أقسم بأنني لست كلبًا ولا أشبه الكلابَ في شيء. نشأ هذا الخاطرُ القلقُ بعد ثلاثين صيفا من عبوري الخارق لتلك الصحراء اللاهبة التي كنت فيما مضى حزينا، أقف عندها بهياج وحيرة. أما قبل قليل -وهنا أشير بإنصاف إلى أيام خنوعي وذلّي -كنت مستسلما لمشيئة عبوديتي، دونما إضمار أو ترميز معبرا في الوقت نفسه عن ولائي لولادات باهرة ما فتئت تكمّلني، مدينا للصدف الصلبة، لحكاية مشرّدة، لامرأة ما في مدينتكم، والتي فيما بعد هي مدينتي أيضا، ملمّحا إلى رفقةٍ غامضةٍ ما برحت تأسرني بمعجزها، تعيدُ تكويني وتخرّطُ صبابتي بعد لأي ومتاه، كأني أشهد إعادة خلقي وأُبعثُ من عدم، طالعًا من جديد. من بضعةِ حروفٍ شاردة لملمتها بلهفةٍ من رماد الفاقة. أنا فقط أشبه سحنةَ قدري المظلم الذي كابدتُ عشقَ بداوته وجماله، أقولها بثقةٍ صلبةٍ بعد أن تنصّلتُ من تبعيةِ صاحبي متمردًا على سلطةِ جسده، طليقًا أجوبُ الجهات وحدي، ولم أحمل معي من ذكريات غريمي سوى إحدى أسمائه المهملة، أعني اسمه المنسي الذي لم يعد يُنادى به، وهو ذات الاسم المُوثق في سجلات النفوس، لأغدو أول ظلّ ضليلٍ يحملُ اسمًا آدميًا صريحًا. حدث ذلك في صيفٍ يبعد بحجمِ أسطورةٍ أو متاه، سلخ عمري وقتها عشرين سنة شمسية. لأن صاحبي قد تواطأ مع جموح الجندي وانغمس كليةً في ترهات الثكنات التي كنتُ أمقتها، لذا عزمتُ على

الهرب مكتفيا بشغف الرائي. فأنا كما يُقال في عبارات الغزل قد أحببت الشِّـــعرَ من أول نظرة، أغرمت به، كما لو أنه معشوقتي، فأصبحَ شاغلي الوحيد الذي أكرّس له رئتي وكل ما ادخرت من خيال. لهذا أظهرت تمردي بعناد على من كان ســـيدي وجلادي ومولاي ، أي على نصـــف كياني الذي بهيئة ألوان مهملة تعربد في فراغ العالم، غير نادمٍ حين غدوت طليقا أعبر عن حواســـي دونما حاجة لأن أكون خاضـــعا لمزاجه، فيما ظل هو شـــديد التبرم من مواهبي، ســـاخطا ومبغضـا يُعلن دون مواربة أو حياء عن حســده ومقته لي، مســتاء إلى حدّ التقزّز كما يقول من عاداتي الغريبة ومزاجي المتقلّب واصـــفا أياي بالشـــاعر التافه ، وأن ما أهذي به أو أسمّيه خلقا شعريا بارعا، هو محض ترهات قصائد ركيكة، لا تعدو عن كونها مجرد عناوين متذاكية تتوهم أن لغوها الســـمج ســـيهبها موقعا بين معلّقات القصـــائد. وهكذا انبرى غريمي ذات مســـاء وهو يلمّع بمهارةِ جنديّ دربةٍ حذاءَهُ الأســـود الثقيلَ، يكلمني في تهكّم دونما هوادة ناعتًا إياي بالدعيّ الأرعن، وأنني تَبَعًا لوصفهِ الحقود لست سوى كلبٍ مخبولٍ، بل محض ذيلٍ هزيلٍ يتبخترُ بزهو مغرور، صـــارخًا بتهكم فج: كأنك تحسب نفسك بأنك أنتَ لا أحدَ سواكَ من خلقَ الكونَ في ستةِ أيام. لا شكّ، قد جرحني هذا السيل من الشـــتائم، والنعوت المخلةّ بما تمليه العشـــرة من عبارات التهذيب، وتألمت ليلتها كثيرا، ولم أنمْ. شربت ما لا يُحصى من

فناجين القهوة وأحرقتُ علبتين من السـجائر الرديئة. وبكيتُ وحدي، بكيتُ كما لمْ يَبْك أي ظلٍ من قبل. وهكذا قررتُ ليلتها المصـيرَ الذي ينقذ ما تبقّى من حياتي القصـيرة، لأعيش حرًا طليقًا، بعيدًا عن نزوات جسـدي. أظن أيها القارئ الذي آزرته الصـدفةُ لتصـفّح هذه العناوين بما حملت، بأنني عبر هذه التوطئة أكون قد كشـفت نقابا عن خلل رافق طبيعة حواسيّ، وحاولت توظيف ما استطعت من عناصر مهملة قد تُسـهم في إزاحة النقاب عن ما غمض من سـيرة لوني، مسـتهدفا إبراز هويتي للذي يودّ معرفة طبائع الظلال وأصولها وأنسابها، ولكي أكون صادقا معك ، ومع نفسي، قد تعمّدت هنا استدراج المفردات الأكثر سلاسة وليونة ووضوحا لخدمة العبارات التي تمليها اللحظة عليّ، حيث يلزمني هنا ضرورة الإشارة مرة أخرى إلى فضل العناصر التي تتضافرُ في تشـكيل خاماتي كمخلوق لا يُرى، والتي هي دونما ريب من لدن الظلمةِ المباركةِ التي أحملُ نسـغَها أينما ذهبتُ بعد أن تكوّنتُ في رحمها وتشكّلتُ من عذوبةِ قتامتِها حتى صرت أنا كمَا أنا ، ظلاً مباركًا لا أتبع أحدا سوى نفسي. وُلدتُ ونشأتُ ظلاً، وسأبقى حيث ما وطأتْ أطيافُ مشيئتي ظلاً وكائنَ ظلٍ، لا تقفُ ضآلتي الظاهرةُ حائلاً بيني وبينَ رسم ملامح الأشياء، فلا يخدعنكم مظهري الحقير، ولا قامتي الخجول، ولا انزوائي وعزلتي وكموني خلف الأجسـام. لأنكم بذلك سـتغفلون عن أعزّ شيء يُحقّق وجودكم، وتخسرون أنفسكم أيها التبّع حين

تغفلون جوهرَ حقيقتكم بجريرةِ جهلكم لنسـبي. وسـوف تندمون يومًا لأنكم لم ترونني كما ينبغي، وتكتشـفون بعد فوات الأوان بأنكم كنتم مصابين بعمى البصيرة. هكذا تركت صاحبي بلا ظل، تركته عربيدا وشرسا، وربما يائسا من حياته الفارغة. يتخبّط بين براثن نبذه، ضحية أوهام غريبة كالهجرة أو الانتحار، لا هم له سوى السّكْر والعربدةِ ومطاردة الأهواء الخسيسة. جارًّا على نفسه المهالكَ التي تقوده في معظم الأوقات إلى الامتثال لعقوبة الحبس في سـجون الثكنات العسكرية. ليغدو محض رقمٍ تافهٍ في قائمةِ المحقرين الذين لا شغفَ لهم سوى الصخبِ الغبيّ، لتمضي أوقاتهم مملة ورتيبة وبائسـة لا دفء يُغذي برودةَ نخاعها. هربتُ فارًّا بما تبقّى لي من توقٍ جميلٍ كظلٍّ لا يتعثر أبدًا، وكشـاعرٍ يهزّ الوجدانَ، منضّدا الكلمات التي تتسع لإيواء البهاءِ المقدس. ورغم ذلك ظلّ اسـمي الذي قُدّر لي رغمًا عني التلبيةَ كُلّما نُوديت به، يحملُ مفارقةً طريفةً، لأنه لا يدلّ عليّ. كيف أكون ظلامًا صريحا واسمي (مصباح)، وهذا يزعجني في البيت، وفي المقهى، وفي همس حبيبتي ورسائلها القصيرة. أنا مصباح في الليل والنهار، في السلم والحرب، وفي نومي ويقظتي يجثمُ هذا الاسمُ النكرةُ على أنفاسي، هذا الاسم الذي ليس لي، ولا يُشبه سوادي في شيء، بل هو نقيضُ لوني، فكيفَ أخضعُ لصلابته وأكون أسيرَ ندائه حين يسقطُ من عَلٍ فأقفُ مذعورًا مثلَ لصٍّ متلبّسٍ. كأني أحمل ورمًا

يقتلع صـــورتي من ذاكرةِ الجدران والغرفِ والقصـــائد التي أرسمها على فَمِ ملهمتي، وهي تهمسُ: يا جبل ما يهزك ريح. ثلاثون سـفرًا والصـيفُ صـيفًا لا غير وأنا يُطاردني قريني من قصـــيدةٍ إلى أخرى، فأهربُ خارج أســـواره، مدركا الحقيقةَ المرةَ التي كان علي منذ البدء التوقفَ عندها. لأن هروبي بقدر ما كان محرّضـــا على إيقاظ الحواس النائمة وخلخلة العواطف وتفخيخِ الغواية، قد جعلني في الوقت عينه نصـفَ كـائنٍ مخبولٍ يتمزّقُ دونمـا هوادةٍ بين ذاكرتين ومـدينتين وخيالين وامرأتين وقصيدتين. حتى أنني لم أعد موقنا: هل أنا قامةُ الرائي، أم ظلُّ الجنديّ.

(3)

أجملُ مَا في هذا الظلّ، أسوأُ ما فيه.
أسوأُ مَا في هذا الظلّ أنْ أموتَ
وأنا أُحبّكِ.
أجملُ ما في هذا الظلّ،
قدرته على السفر والضحكِ والنومِ والصمتِ والرقصِ والبكاء
أجملُ ما في هذا الظلّ أيضًا،
الظلُّ الذي لم أكتشفه بعد،
أسوأُ ما فيه

يشيرُ إلى خرابِ جسدي
وطفولتي الغافلةِ
أجملُ ما في هذا الظلّ
تهافتُ الغاويات،
وإصغاءُ سدنتِها المخلصين
وهذا الزعلُ الحميمُ الذي يلمعُ في عينيكِ،
وهوسي بكِ،
و..... أجملُ ما فيه أيضًا
ما يتخفّى من خيالٍ صاخبٍ خلفَ الكلمات.
كذلك السريرُ وما يختزنه من روائح وأحلام
وعناوين وبقعٍ حارة
لكن الأسوأ ....
أن كل هذه الأوطان التي رفعنا أعلامَها وبنادقَها
ورسمنا خرائطَها في أحلامِنا ودفاتِرنا
بكل ما فيها من هتافٍ وأناشيد وصحف ومستشفيات
وعناوين وبحار
وأفران وأمنيات وحدائق .....
لا تتسع لإيواء ظِلٍّ واحد أُحِبُّكِ فيه.

(4)

الذي الآن طرقةُ ريح

صدى البابِ الذي قبل قليل كان بَابي.
الأصابعُ الباردةُ أمستْ بعد فطنتها في الليلِ تسهو
لتختفي فجأة مفاتيحُ بَابي.
لذا لن يُحيطُكِ يا مولاتي بعد هذه القصيدة ظلٌّ
ولن يملؤك غيابٌ .....
سوى غيَابي.

(5)

لا بأس ... قالَ الظلُّ:
إكرامًا للعيدِ، أتركُ الآن القصيدةَ التي ريثما أغادرُ سريري
سأكتبُ قصيدةً أجملَ مِنْها.

رؤيا نوم المستيقظ

"الوجد الحاصل عن التواجد لا يعوّل عليه"

-الشيخ محي الدين بن عربي-

(1)

"ما تفرقه اليقظةُ

يجمعه النوم.

في الصحو

يتشتّتُ الواحدُ

في النوم

يتوحّدُ الاثنان." - م/ع -

(2)

كنتُ قد رأيتُ أن نظارتي قد تكسّـر زجاجُ قُرَّتها، وإنني أنحني بأسـى للملمة شـظايا عيني اليمنى، محاولا طمأنة خيبتي بأن المسـألة برمّتها، لا تعدو عن ترهاتِ نومٍ سَـتَتَلاشـى بَعْدَ قليلٍ. حلمٌ متطفّلٌ، ما يلبث أن ينقشـعَ ضـبابُ فاجعته حالما أغادر مخدّةَ رُقَادي، لكن قبل أن أتنصّلَ من شطحات نومي ألفيتني أتداعى إزاء أول امرأةٍ عابرةٍ لأكاشـفها بحزني جراءَ الجريمةِ النكراء التي ارتُكِبَتْ في حقّ نظارتي. امرأةٌ حنونةٌ وشـفيفةٌ نضـرة، كأنها حبيبتي التي تاهتْ قصـيدتي منذُ دهرٍ بحثًا عنها. هكذا تبدّتْ لي وهي تفسّـرُ الحُلُمَ على طريقتها مؤكدة في طمأنينةٍ راسخةٍ بأنه مَا مِن شيء يُخيف، فقط. قالت العرّافةُ فيما فمُها يتكوّزُ شـاهرًا ابتسـامةً مُغوية: كل ما في الحلم، إشـارةُ فيضٍ، وعلامةُ بهجةٍ، وأن ما تكسّـر في النومِ، حتى ولو كان بهيئةِ زجاجٍ هشٍّ، سـوف يتكفّلُ الصحوُ بإعادةِ خلقهِ وتمتينِ عراه، فابشـرْ خيرًا، لأنكَ موعود بالسـفر قريبًا، لتبدأ رحلتَكَ، رحلةَ حياةٍ جديدة بنظرٍ ثاقب، وأنتَ أكثر فتوةً وبصيرةً بخبايا المجهول. الدنيا تدعوك إليها، لتنهل من عذوبةِ فيضِـها، وتتمتعَ بلذائذ نِعَمِها. فتفاءل خيرًا. هكذا أُفسِّـرُ حُلمَكَ أيّها الرائي الذي لا يكف عن تشتيت الأحلام. ثم رأيتُ فيما يَرى

العاشـقُ كأنني أحدّثها وهي تُصـغي باسـتكانةٍ وديعةٍ لا تخلو من لطافةِ التحنان، ومهابةِ الوجدِ، وحبور الفتنةِ، لكأنه إصـغاء تعبّدٍ وخشـوعٍ، لا مراودة وحشٍ يتخبّلُ في شـراكِ حُلُم. هكذا ظلت العرافةُ تستمع لحكاياتي المهووسة بالرؤى، وأنا أحدثها عن حنانِ أُمّي، ورحيل جدّي الأعمى، وموتِ أبي، عن مآثر حي سـيدي عبد الجليل، عن خليفة الورّاد وجارتنا تفاحة، عن كل شـــيء تبادر لخاطري: تمزّقات أيام طفولتي الغابرة. وقصـــتي مع الجهل والجوع والوحشـــةِ والزمهرير، والحروب التي خضـــتها وعطن الثكنات، رويتُ لها ســـيرتي المحزنةَ مع اليتم والفاقة والفقد والرحيل، ســـلختُ لها الصـــحارى البعيدةَ ولغةَ المنفى والجوع، واسـتعدتُ العواصـمَ المضـاءةَ والليلَ والغناءَ والرقصَ في الحانات، اعترفتُ بنزواتي الصـــغيرة، نافضـــاً عن كاهلي كل الأوزار التي تثقل موازين أخطائي، ووصـفت أقبيةَ العزلةِ التي رزحتُ ردحًا من القلقِ رهنًا بقتامِ خوفها وكآبتها. حكيتُ عن فتاتي المهاجرة وشـغف فرشـاتها برســـم الأشـــجار العارية ووجوه الأســـرى. كما عرجت على سيرتي مع النائمة بعيداً، المرأة الوحيدة التي كانت تربت على حزني وتصـــغي بشـــغف إلى حمـاقـات أوهـامي، عرّفتهـا بأصـدقائي وعناوين جهاتي وأسـماء الخفاء التي أودعتُ فيها رصيدَ تجاربي، سردتُ مغامرة طوافي بين الكتب الأثيرةِ التي

علّمتني حكمةَ الإفشـاء، ملقيا على مسـامعها مواقف النفري، وما تيسـر من رسـالة الشـيخ محي الدين بن عربي في مَا لا يعوّل عليه، وطواسـين الحلاج. سـاردا محنة السّـهروردي، واغترابَ الشـنْفَرَى، وحكايةَ طرفة بن العبد الذي تواطأ مع حتفه. ولم أغفل وأنا احكي أن أنقل لعرافتي المصـغية شـغفي بالأحذيةِ الجديدة عندما تعرفت على أول حذاء (تشـيكي)، اشـتراه لي أبي بمناسـبة عيد الفطر. كنت وقتها أميرا صـغيرا من أمراء علب التنك في (سـيدي عبد الجليل)، أميرا شـقيّا بوجه مجرّح خمشته الأظفارُ وكسته الندوب؛ قد لا يكون ذلك أول حذاء جديد. غير أني وقتئذ لم أتجاوز الخامسة من عمري بعد. أنا الفقير وليس أي أحد آخر، ولمّا غادر أبي هذه الدنيا الفانية لم يترك لي غير الفاقة والتشـرد. كنت يافعًا وحالمًا وحزينا. وقد تعين عليّ أن أظلّ دائما وحدي. وحدي في الليل أحرس بوّابات القرى النائية ومخازن الذخيرة، كنت أطرد الخوف مسـتعينا بمذياع صـغير يتيح لي سـماع الأغاني والبرامج السـاهرة. وحدي في الخلاء الدامس أطلق العنان لمخيلتي. ووحـدي أعود راجلا مسـافـات طوال في ليـالي الجمعة إلى الثكنة بعد انقضـاء يوم عطلة الأسـبوع. وحدي دائما أفكر في أشـياء أكبر من قامتي. وحين انتبهت أن غلالة من الأسى بدأت تغشى مسارب وجه عرّافتي اقترحت

أن ألقى عليها آخر ما كتبت من قصـائد في مديح الغرام، وأنا أخطفُ عينيها بولهٍ كما لو أنني لم أفارق نومي وأن الحلم قد تداعى بي لرؤية هذه التهيوءات. كُنّا في كلّ حكايةٍ أو قصيدةٍ نحققُ قربًا من ذلك الفيض الذي صـــرنا نتواطأ مع دنوّ أجله، حتى لم يعد يفصـــل بيننا أيما برزخ بعد أن توحّدَ غرامُنا واختلطتْ أنفاسُـنا وانصـهرتْ محبتُنا في خطفةِ سـرٍّ لا مناص من الرضـوخ لمشـيئةِ أقداره. فلمْ تمض بضـع حكايات حتى غدونا نتلظّى بين كرّ وفرّ، وصارتْ كلماتُنا فخاخُ حنينٍ تتربّصُ بنَا في كمـائن يقظةٍ ومـدارج نومٍ، حتى لمْ نعـد نقوى على مفارقةِ بعضنا، فاقترحنا سقفًا والعابَ عشقٍ تفنّنا في صناعةِ أهوائها، ثم سافرنا إلى مدنٍ وواحات ثريةٍ بالسحر والأساطير، وغنينا معًا، ورقصــنا على أنغامٍ مرحةٍ في الأمســيات الحفيةِ على شـواطئ مَرْسِينْ وذُرَى إنطاكيا، وصـعدنا جبلَ قاسـيون في الليالي المقمرة، وطفنا بمتعةِ مَنْ يَثْمُل بخمور الجنةٍ في ذاكرةِ مراكش والتقطنا صــورًا مع ثعابين الحواةِ في ســاحةِ جـامع الفنـاء. لكن لأمرٍ مَـا ظَـلّ الوحشُ في غـابـةِ روحي يتخبّطُ طيلةَ السـفر في شـراكِ حلمٍ يتكسّـر دونما رأفة، ربمّا لأن كل ما حدث كان جريرة نوم، كما بدأ يُحزنني أن حكاياتي التي كنتُ طيلةَ الســـردِ ،أكدُّ بكلِّ ما أُوتيت من مهارةِ الراوي الدربةِ في نســـيجِ بهائها، لم تعد تســـتأثرُ بمهابةِ الإصـــغاء، وأضـــحتْ كأنها ثرثرة من لغو الريح، أَو أنَّ كلماتي قد فقدت

ســحرها، فكان لزامًا عليّ أن أتحايلَ مســتنجدًا بكل مَا في اللغةِ من روحِ الإيقاع وتفانين البديعِ لكي أســتردَّ حواسَ عرافتي التي غدت تشـردُ بعيدًا خارج تخوم أحلامي، ولم تعدْ تحفـل بمـا أوْثـه من بلاغـةِ العطر وإعجـاز الرؤى في خلايـا كائناتي التي أعتصـرُ مفرداتها من نسـغِ القلبِ. وأمسـتْ أكثر تبرّمًا وســأمًا بي، وقلّما تعبأ بشــؤون فمي، أو تَهَبَه ولو نزرًا يسـيرًا من تلك الإصـغاءةِ الأولى. لهذا تشـرّدتْ حكاياتي أخيرًا في متاهةِ مطافِها الذي صــار هبوبًا طائشــًا، وأمســتْ كل أحاديثنا فيما بعد شـبيهة زوابع وسـليلة أعاصـير، وظلّت خيوطُ صــحوتي تتقطّعُ، وأحلامي محض كوابيس خـادعـة يتعـذّرُ الخلاص من براثن مكرها.

(3)

منذ أن خلق اللّه الأسماء الأولى.

وأنت أيها العاشق تؤثث لحبيبتك الفاتنة بريد احلامك.

(4)

الرطوبةُ ترسمُ لطخًا عشواء،

ترسمُ نهرًا مهجورا على جدران مخدّتك.

فأغسل بيجامتك من بقع النوم،

وقلبك من ثرثرة الطيف.

وخذ قصيدة الروحِ برفق،

خذ شرفتكَ فوقَ الظلّ.

يكفيكَ وجهَ الرقراق المبثوث في مدونةِ الماء،

وقد هطلت مراياهُ أخيرا بكنوز النور.

خُذْ ما يسدّ شقوقَ السقفِ، صوتَ الفضةِ.

ولا تنده: يا حمامةَ ريح تغفلُ عشّها،

يا كبوةَ سردٍ وخطيئةَ سفر،

يا مقامَ ريبٍ يقصمُ ظهر الموسيقى،

يا قطةَ ليل.....

(5)

يا الوجه الذي أراه قبل وجهي. يا الله ترّفّق بي، أنا عبدك/

لا أريد كنوزا أو قصورا أو بساتين سوى أن أنام من دون أن

تهاجمني الكوابيس/ فقط أريد أنام يا ربي،

لم أعد متشبثا بشيء سوى النوم بهدوء/

هذه هي المعجزةُ الوحيدة التي أهفو إليها،

.....

أريد أنام من دون أن تغدر بي خناجرُ أحبّتي

أو تفزعني أشباحُ مودتهم/

أريد أن أنام معزولا ومنبوذا كبعيرٍ أجرب/
لا أحد يطعنُ جثةَ نومي أو يطلق سهامَ غوايته على عصافير
قلبي/
قد كفرت بحب غير حبّي لك وحبك لي.
أنا محض فقيرٍ يريدُ أن يحتفظ بثراء قربك.
يريد أن ينامَ كحجرٍ مهملٍ أو غابةٍ مهجورة.
أعطني أيها الواهبُ لجاماً يكبحُ جماح عشقي،
أعطني دررَ الصمتِ التي لا تعطيها إلا للموتى،
لكي أطلق آخر طير في قفصي،
هَبني من لدنك كلمة تحجبني عن وحوش أحلامي،
كلمة تخبئني عنّي.
فقد ثقلت موازينُ ولهي،
وتعذرت أسبابُ أحبابي،
لا شيء الآن يعنيني،
تاه صحوي عن نومي،
لا هذا العليلُ جسدي،
ولا هذا البابُ بابي.

الملاك

" لم أزل أبكي حتى ضحكت، ولم أزل أضحك
حتى صرت لا أضحك ولا أبكي."

- أبو يزيد البسطامي -

(1)

مرة أخرى تستأثر بي سكرةُ فرشاتي التي كما يبدو قد ثملت من فيض ما صـــورته من عجائب المخلوقات إلى الحدّ الذي لم يعد فيه ثمة بياض في مكنته أن يرحب بشـــطحات نزوتها الســـادرة دونما توقف في رســـم الكائنات التي تســـتدعيها اللحظة لتبتكر في كل شـطحة لونا إضـافيا اشـتّقت ظلاله من عناصـــر متباعدة لا رابط يجمع بينها، هي من خامات منبوذة وأشياء مهملة، فأختلط نسغُها بصوف محروق ومنقوع الشعر وزيوت الحجر وغبار الفجيعة وبخار الأحلام، وكل شـــيء متعذّر وشـــاذ ومجهول قد اســـتدعته مغامرةُ ألواني التي لا فكاك من اقتفاء جموحَ شـــهواتها، ليصـــلَ طغيانُ خيالها إلى أبعد حدّ في اختراع خلطة من ألوان مستحيلة لَم توجد. فكان

لزامًا عليّ أن استسلمَ لجرح أصبعي بشفرة حلاقة لكي أظفر بطاس من طراوة دمي وقد امتزجَ بعد هنيهة بقليل من دموعي الحارة مع لسان عصفور حَطّ به المطافُ على رخامة نافذتي، ثم هيأتُ المحلول لأن يمتصَّ روحَ القمر لسبع ليال قمرية متتالية من ليالي الربيع الصافية، بعدها أضفتُ إلى الطاس مسحوقًا من ريش حمام ونَدى لم يُمسّ، ليكون جاهزًا بعد امتصاصه لثلاثين عنصرًا من عناصر الكون، لرسم الكائن الذي حتى تلك الساعة لا أدري ما هو. لأنّه لَم يدر في خلدي قط، بأن أطيافَ فرشاتي وهي تترنّمُ بين سحب شفيفة قد بَيّتت أمرَها لاستدراج ملاك شارد، أو هكذا تبدّى لي حين أمعنتُ النظرَ في ذلك البهاء من إعجاز اللون وهو يسفرُ عن طيف نوراني يُحلّق مشعشعًا في فضاء لوحتي المزهوة بنفسها.

(2)

هنا تتطلّبُ معجزةُ الفرشاة أن ألجأ رغمًا عني إلى حاشية النثر الذي لا مناص البتة من طاعة ما تمليه أوجاعُ خيبته، وعللُ وجده، لأشيرَ بأصابع قلقة، دونما غضاضة أو خجل أو خوف إلى مخلوق لوحتي الذي تمرّد على فضاء ورقة (الفبريانو) لترمي به طوالعُ الخلق في دربي ككائن حي، وليس كنزوة عشواء من نزوات اللون السحري التي لا براء

غالبًا من تُرّهات طبيعتها الغامضــة، حين تتبع الضــلالةُ التي تقمّصت هيئة ملاك.

ملاكٌ تراءى لي في غفوة من غفوات حكمة النّور كأنه قد هبط فجأة من السماء الثامنة، كائن قزحيّ من خزف شفيف يشــعّ لطفًا ورحمةً ودفئًا، ملاكٌ لا يســعك إلا أن تنحني ذليلاً وصاغرًا لتقبّلَ موطئَ نعليه، ملاكٌ أرسلته ربةُ اللون المقدّس لكي يغمرك بعطفه ويروي روحكَ الظامئةَ من معين محبته، يؤنس عزلتكَ، ويرمّمُ خرابَ رحلتك، ملاكٌ ذو ملمح آمن ونضر وناعم وخجول وتقيّ وعفيف ووديع وباهر. ملاكٌ وهَبتهُ لك آلهةُ الرسـم أخيرًا، وكأنها تريد أنصـافك بعد طواف طويل من التعب والشـقاء والتيه في شـعاب الجهات الوعرة. نثرٌ لخليط من عناصر لون وحشيّ يختطفك من رتابة الخبب، حين يُسفر عن طيف بهيّ يفيضُ وجدًا ويتدفقُ بهجةً وحبورا، ملاكٌ من خلاصــة أعجاز قدّت من دم ونســغ قمر هائم في ملكوت الشــعر وبكارة ندى، وموســيقى من ارتعاشــه أوتار معتّقة، وخفقة ترانيم ناي ولهان. وعصـائر طير عاشـق. ومشـية ليل اثمله فيض العشــق/ ملاكٌ في عينيه أنهارٌ من ودّ وســماء سعيدة برقص نجومها وأعراس سكانها المرحين، ملاكٌ أخّاذٌ وفاتنٌ، لا غرابة أن يستأثرَ بصلاتك وأغانيك وطوافك، ستُعطيه كل ما تملك وما لا تملك، تهبهُ حواسَــك وكنوزكَ وحريتكَ وذاكرتكَ وجوازَ ســفرك ونطفةَ تجاربك وهيجانَ نبيذك. وكل مـا تملكـه يمينـك من مفـاتيح الأبواب والقلوب والخزائن

والأسرار سيغدو رهنا له، بما في ذلك جسدك النحيل الذي لا يقوى على مقارعة جمال العواصـــف التي ترســـلها غيومُ الســـخاء، لتُمســـي قامتك خفيفةً ومســـتنفرةً تتعثّر مزهوة بتلعثمها وارتباكها كلّما همســـت شـــفاهُ ملاكك، تنطّ أيها العبدُ ملبياً دونما تردد كل ما يُمليه وحم معشـــوقك، من رابع مســـتحيلات الكون إلى ثامن معجزات الدنيا التي عليك أن تجلبها من عدم. لأنك لا تملك في ما تملك إلا أن تكون خادمه ومريده ومسامره ومهرّجه، وظلّه الوفيّ الذي يستجيب طائعا وطيّعا لنزوات مزاج ملاكه الســـكران ، يكفي أن تتفيأ ســحابةَ عطره لتســافر في ملكوت المتع / نورانيٌ هو ملاكُكَ العارف بكل شـــيء ،الذي يكفي التمتّع بلمس أنامل رأفته الكريمة، هو القابضُ على أســـرار الغيب ومخابئ المجهول، الســـالكُ نهج معرفة الأفئدة، الكاشـــفُ جوهرَ الخفاء وطبائعَ الكواكب المنظورة والخفية، الواهبُ حليبَ النجوم، وليزرَ الثريا، النابضُ بجمهرة الأنوار، هو مولاك وســـيدك الذي تأمل بتوق جامح أن تحلّ عناصره الثلاثين التي صوّرته بها، لتمتزج بتاريخك وجهاتك ونومك وصخبك وسكينتك ولحافك وأنفاسك/ تتخلل لغتك وحلمك ومديحك و سيرك ومسراك/ هو ستركَ وسريرتك، لباسُك وسفرك، عاصمةُ فؤادك ومدارُ عيشك ومعاشـــك، أوردةُ خيالك، وعروقُ متعتك، تنامُ حالماً به، منتشيا بوعد حنانه الوارف، وتستيقظ متضرّعا في توسّل أن يشملك بخطفة عطف تتزود بها على منازلة جند الأيام. كُنتَ

تراه ملاكًا، وهذا دأبك لا ريب كلما سـبقتك ترّهاتُ شـهوتك، أجل قد ظننته ملاكا لا غبار عليه، ملاكًا يتفوّق على جمال سلالته / كأنه المقام الأول والأخير في مسافة اللون ومدارج الهوى، العبارةُ التائهةُ عن صيادي الحكمة، والسلّمُ المأمول في تاريخ الموسيقى/ الضفة الآمنة التي تنتظرها جمهرة العشاق / كلمة السر المفقودة في جزر اللغات / القصيدةُ المنتظرةُ، والعبارةُ المحلومُ بها التي ستنقذُ الشعرَ من شتاته، وتضعُ حدًّا لمتاهة الجعجعة. خلاصةُ العطر المستحيلة التي من أعشاب الغيب وبساتين الخرافة.

(3)

تنتظر وتنتظر، ثم تنتظر مرة أخرى أن يترفّق بك ملاكك ومخلّصك ومطهّرك ومولاك، ولا سيما أنك ما تفتأ أبدا، ليلا نهارا رافعا أعمدة المديح بعلوّ خاشع، إكراما لبلاغة الحلول في حضرته، والفناء في تجليات قدرته. ولأنه ملاكٌ من سلالة خيالك، ينصهرُ في شراييه شيءٌ من دمك وخلايا السماء ولغة الطير، لا يمكن الظن بأن يكون وباءً أو شرًا أو حقدًا أو ضغينةً. هو حتما من عيار استثنائي، ملاك صُكّ متنهُ الشفيفُ من أبجدية عناصر الرحمة وحدها، لأن الملاك غير الشيطان، فهو ضد الشتات ونقيض الفرقة، وهو بداهة من صنّاع الخير، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن الفحشاء والمنكر،

ويجنح تبعا لطبيعته اللونية التي من قمر ودم ودموع، يجنح للاحســـان والســـلم والمغفرة والتوادد والحلم والرحمة والتســـامح، وكل شـــيء من رهط الطمأنينة والســـلام يليق بـالملاك ويكون من لـدنـه... الملاك دعوتـك لحيـاة مبهجـة/ ومرشـدك إلى البسـاتين والأنهار، هو دليل ألفة وتآزر، وصـلة رحم، لا محرض فتنـة ومهيّج زوابع بغضـــاء. الملاك. فهـل يعقل أن يكون ذلك الكائن الذي حسـبته في شـطحة ما من شـطحات الخلق، ملاكا عفيفا خرج طازجًا من لوحة الرسـم، هو محض وهم، وخبط أعمى من لطخ خيال تتشـرد، ونزوة ألوان غرّر ببراءة خليطها.

(4)

سأل حارس الظلمة:

* أين منزلك أيها العابرُ

- منزلي لا يُحدّ يا سـيدي، انه الشـاسـعُ الذي سـقفهُ هفهفةُ نسيم وبساطهُ مديحٌ وأبوابه عناوينُ مخيلة.

* أليس لديك دار تُؤويك، لتســكن إليها وتحتمي بها من هذا الزمهرير الغاضب؟

- كان لي مقام، لكني قد هجرته، بل تحررت من ســـطوته وعتقت نفسي من نفسي.

* لا أفهمك، أو لعلّي لا أريد أن أفهم سوى أنك ضائع.

- كنت ضائعًا حين رضختُ لسطوة وجداني، أما الآن فأنا حرّ لا أين لي.

* ولمن تركت ملاذك؟

- لغزاة طيبين. الذين رأفة بي، كفروا بي.

اقتلعوني عنوة من تربة وطني، واغتصـبوا مملكتي دونما سلاح،

سوى بارود محبتهم.

* ومن يكون هؤلاء الطغاة الذين جعلوك منبوذا وشـريدا لا كنف لك؟

- الملائكة يا سيدي / الملائكة وحدها من أطلقت براثنها في أوردتي حتى ضــقت ذرعا بمتني وغلافي، فهربت ناشــدًا الخلاص، منقذًا ما تبقى من أنفاس حبري لربّما أرســمُ أرنبًا يرقصُ أو عبادَ شــمس يتمردُ على تاريخ عبوديته، أو قصيدةً تفلتُ من شباك الخليل.

* لكن الملاك لا يسطو على عباد الله، لعلك تهذي.

- أقسم يا سدي أنّه ملا ك لا غبار عليه .....

ملاك سمتُه من نور، وكساؤهُ سندسٌ موشّى بلؤلؤ يخلبُ القلوبَ ويُلهبُ الأبصار.

* كيف يكون ذلك؟ الملاك لا يهبط إلى حضـــيض الدنيا، ليلوث نفسـه بروث الأرض، الملاك له قصـورٌ من ذهب وانهارٌ من عسل وخمرٌ في الجنة. لا تُغريه عفونةُ أرضكم القاحلة.

- ربما يا سيدي ولكن هذا ما حدث.

(5)

هكذا غدر ملاكي بي/ فصـــعدت متشـــبثا بعلو روحي حين هبطت عزيمةُ جسدي. وانتشلتُ بقايا أسمي من براثن جريمة نكراء. قال الغاوي مشـــفقا: كأني بك قد خُبلت .... أو قد أصـــابتك لوثَةُ خيال أودت بك إلى التهلكة. قلت: ربما يا صـاحبي. بل لعلّ من حسـبته ملاكي كان خديعتي، وحماقة خلقي التي لا تغتفر. لكن يظلّ لكل منّا في هذه الفانية حكايةٌ فاجعة، وأيضـــا لكل منّا خطيئة تتأرجح ألوانها بين الثواب والعقاب. لأن كل هذا النسيج الماكر من رحلة كوميديا لوحتي الســـوداء لم يكن في البدء ســـوى مغامرة فرشـــاة ســـادرة في نشـــوة ألوانها، لا تخلو من براءة التكوين حين صـورت بهوس الفنان تلك المسـافة التي تلاشـت فيها نسـب اللون المقدّس بين ضـحك من بكاء، وبكاء من ضـحك. هذا كل شيء.

_____ كأنك أعمى.. دعها تنتظر

(1)

وأنت تثقب الظلمة بعين خائفة:

وخيال مهجور،

ثمة شهقة هسيس تتخفّى. كأنك أعمى يا ابن مخيلتي

اقتف دخان محبتك واطرد لغو الريح عن قصيدتك التالية

ودع الكلمة الوحيدة تنتظر.

الكلمة الصغيرة الناعمة، التي تتبعها آيات النور،

الشبيهة بكتل سابحة في سديم يسافر،

الكلمة الهابطة من علو أزرق بشعر مبلول،

الكلمة الجريئة وهي تصهل من بعيد،

الكلمة التي نجمة طليقة ترفرف عيدا على مدارج الوحشة،

عصافير حرة في سماء مطمئنة،

قوس قزح يزهو بكريستال محبته،

الكلمة، المديح للنار جالبة المطر، المديح للألفة التي واءمت

بيننا، وبين كل ملح، وماء قليل يتكاثر.

لكل واحد يتعدّد، الكلمة أبجدية خطف.
الكلمة التي انفصمت عراها بين المعاني
وتفتّح بريق شهوتها عاليا. حيث الأسماء تشير إلى
برتقال المسارب الحارة/ برتقال الشموس الثملة
بلاغة النشوة.
الكلمة ذاتها، تتشرد حين تلبّي نداء حرف مجهول النسب
الكلمة السخية وهي تقدم أفضل ما لديها
من عصائر ورضاب ونجوم،
التي تركت غفلا بين الخرائب ستدلي بأوصاف مفسديها.
التي أقوى من أن يقهرها نزيف أو تهزمها فاجعة،
دعها تنتظر.

(2)

أول كلمة ذات مغزى سمعتها في برلين
هي (مِيْتَه)، تعني الوسط.
لهذا توسّط جدرانك الستة مغمورا بالوساوس
ستوقظك البروق ابنة السماوات الشقيقة.
لأن الكلمة المجلجلة تترك فراغا بعد الحرب
ستتشرد الدلالات وتتشابك في دروبها الأسرار
الكلمة التي بلا شكل،
تغدو شكلا من عبور إلى آخر

التي بلا نسب، تصنع ملاحم من فتوحات المحبين.

ستتبعها واثقين من فخامة إعجازنا.

الكلمة التي بلا صوت، لها أعياد ومآذن وألعاب وعطل،

ومسرات تقتحم فصول الأسرى/

كأنك أعمى حين لا ترى الجمال يتمرد

ربما تعتعتك سيول الظلام فغدوت صلبا كالمجاعات.

دعها تنتظر

الكلمة المشعة كحبيبتك

الكلمة التي لا شيء وكل شيء

ستمجّد عذوبة رفقتها وأنت تخمد موجوعا في الظل القصيّ

الكلمة بآفاق زرقاء يتاخمها ضباب شبق

لا قوانين ولا طواطم تحدّ صدرها

تأتي هكذا دونما إشارات.

الكلمة الراسخة في العشق

بذرة نار، وعواصم مطر

الكلمة، توق المنبوذ/ ثوب المستوحش

وسكن الشتات من المعاني الضالة.

وطن العابر صديق البراري.

الكلمة القادحة

دعها تنتظر

ستبرق دفقة سحرها لتخترق سماء الهواتف.

(3)

يا أشقاء النثر وحراس البيان

بأية قوارض كانت الحكمة تتمزق لتغدو نهبا لجيوش الزمهرير.

ولماذا كلما حطّت يمامة شاردة تهجر الدلالات فولاذها

ألهذا الحدّ الكلمة ضــرورة لنمو الرياح وهجرة الطيور وتداول المعرفة

تكتسح أبواب الحاميات ليقتحم جنودها خزائن المجهول.

الكلمة حلقة مفاتيح. وسهام وجد

القوية الضاربة، الإعجاز نفيرها.

الكلمة التي لها فم يشــير، وعيون تعتق الظلال في صــحراء النور

لها يد، أصابعها من خجل وحليب

الكلمة حمالة شوق، تحتفي بعودة غيومها لجهات السؤال
جوابة غيب، من باب بن غشير الى كاتنزارو لا أسماء تكفيها
دعها تنتظر.

(4)

دعها ربيعا آخر حتى تستردّ تاجها المسروق
فما أبهى الكلمة التي تقود اليقين إلى ضفاف القلق.
أعني الكلمة نذر المعرفة التي كأنها رؤوس الشك
التي طفل يتشبث بحلمة الروح.
فزّاعة نظر،
شبح محطات مجهولة،
مراكب ريح،
جبل من حكايات وحنين،
خروج من ثرثرة الزوبعة إلى كثافة الماء.
الكلمة التي تنطلق بثبات موجة نار
خلاصة ألم وفتنة.
التي تخون فراغا في جدار اللغة لتكمّلني وأنا أومئ إليك
التي تعيد كتابة الحواس بحبر الندرة.

تشكل خرائط تيه وتزيح ورما من ترهات الجسد، حتى أراك
وأنت ترسمين قيامتي، فأشتهيك معزولة عن قدر الجواري
الكلمة النظيفة، الحزينة، الغاضبة
محض كلمة تترك بحرا طيبا
أو كوخا يطير بخفة على حافة سحب خضراء.
أو تلوّح بحياء
إلى امرأة نضرة وجريئة وكاذبة
كأي عاشقة تقع في شراك الحب.
الكلمة: حقول ألغام في ممرات الغواية
كمائن خفة تراود الضالين بأحلامهم
فارفع قصيدتك الآن
ودعها تنتظر.

(5)

الكلمة الخفيفة، النزقة، الضحوك، المدللة:
حينا، هي مشية ملكة.
حينا، تنتزع المعاني من رؤوس أموالها،
وتقترح قلقا يتقلّب على هبوب الأسرى.

رأيت رعاياها يتسكعون في شوارع الكتب،
فقهاء يتربّصون طير البراهين.
رأيت السجون تضج بصرخات نفيرهم.
السدنة بأحذيتهم الحدباء الذين سرّحوا بأسماء مبتورة،
وأحلام ذاوية بلا أبواب/
الذين خرجوا بظلمتهم ...
ولم يعثروا على قلوب حفروها على لحاء الوطن.
كنت هناك في الجبل الأخضر حين خيّم بؤسنا.
كانت محض وعود من خزف ثرثار تلوّن المرعى.
كان جدي يصلي لأجل أن تغدو الكلمة عناوين جنّة.
طارت أسراب من حمام فوق القصور التي ليست لنا.
كنت شاتيا ورثّا وحزينا من الداخل.
تذكرت خيانة الطين وهجرة اللعب.
مرت مدن عارية وأبواق صاخبة وشاحنات جنود وأمّهات جوع.
والكلمة غير الكلمة التي ابتكرنا معاجم أجنحتها،
عندما كنا نسخر ضاحكين من طوابير الخبز في
الصباحات التائهة:
أرتال كالحة من الصمت تتقدم ببطء ماكر في العراء البارد

عند هضاب (المرج) التي صنع الزلزال نصف حكاياتها المارقة.

المرج، البلدةُ التي شــهدت بعض ترهات صــباي. مرت دونما ضجة
المرج التي أيام بلا مخابئ وعطر وحبيبات.
محض كلمة متصــدّعة تدور بين الفصــائل المنتشــرة خلف الأسلاك الشائكة تبحث عن معنى.
كان الجنود يظهرون حماقة أكثر بلادة من حكاية
غرق حمار الشيخ في العقبة.
ربما لأنك أيها الشاعر تنبذ الكلمة الجامحة بأصواتها المختنقة التي بلا غيوم، ونوافذ وقناديل.
الكلمة التي يطعمونها لجراء النحاة،
وتكره الفقه الذي يتنطّع بقداسة الموتى
وينمّط السماء والسفر والأمنيات ...
لكن الكلمة الخليلة تظل مرحّبا بها قبل التدوين وبعد التكوين ...
الكلمة التي تهبّ حارة، لا تعير احتراما للقوانين البلهاء
لا تلتفت أبدا للغو المشعوذين المهرة.

إنها ترنو لنمو الغيوم وتصنع أجنحة واثقة

الكلمة ذات الوشم

التي تدربت على صقل جموحها في زنازين الثكنات القصية

الكلمة المهملة والشاردة في معلقات معتقلة طيلة الدهر

ذات الشرفات المشعّة،

والرسائل المخبأة كقرابين

التي لا تمحى

تذكركَ بعاشقة أو مدينة نسيتها.

تذكركَ من جديد بأنك ذئب في الثالثة والخمسين

تذكركَ بسيدي عبد الجليل وزوربا ومفتاح العمّاري

تفتنك مرة أخرى بحياة مخبأة داخل صندوق

في قاع بئر أو قصيدة نائمة.

ببكاء عند الفجر في برلين الباردة

هنا حيث ينتسب الوجع إلى سلالة الديناصورات

خلف الجدران العتيقة لمستشفى (شارتيه)الشبيه بكنيسة

تحتضر.

حيث كل غياب بهيئة كلمة فاتنة تطرق باب الروح

دعها أيها الكهل قليلا ريثما تغادر بلاغة عزلتك

دعها تنتظر.

الطائر الأخضر

"كن مثل الريح سريعا، ولا تترك أي أثر،
وكن محكما مثل الغابة"

-سون تزو-

قد اســتغربتُ بعض الشــيء حين قررت حكايةٌ حانقة، تتألّف من بضــع وقائع محزنة أن تنتقم لنفســها، مســتلهمة بعض خططها من وصـايا الحكيم الصـيني (سـون تزو ووه) التي تضــمنها كتابه العريق "فن الحرب"، بعد أن صــكّ روح الكلمات الحكيمة مستوحيا أفكارها من تجربته كجندي صغير في جيش مملكة تشــي - الصــين حاليا - التي يطلق عليها الانجليز (تشـاينا)، وذلك سـنة 500 قبل ميلاد المسـيح عيسـى عليه الســلام. حيث لجأت الحكايـة إلى تكتيكـات قتـاليـة، واســتراتيجيات حربية واثقة من فداحة نيرانها وضــراوة مكائدها، وحبك حيلها التي لن يخامرها الفشـل، فقد سـاءها – أي الحكـايـة - أن تظـل مهجورة بلا قمر وســمّـار ومريدين،كلماتها تذبل، وتخمد جذوة لهيبها حتى كادت أن

تنطفئ تماما، فليس أقسى من أن تقبع الحكاية منبوذة ونائية تتضـــوّر وحيدة في كهفها العطن. فلم يعد عشـــاقها الأوائل يحفلون بها، أو يقيمون لها حلقات الســـمر، لتزهو مختالة بنبيذها المعتّق، تتنقّل مسكوبة بمرح في كؤوس نشيطة من فم إلى فم، كل حاســة من حواس الخيال،تضـيف إليها بذرة نور،تنمو في رحمها بهدوء ، وكل عاشــق يصــبّ في نســغها عصـــير شـــهوة حارة، وهي تشمل ســـكرانة بفتنتها، مأخوذة بسحر خرافاتها الغريبة،وسطوة أساطيرها التي لا تكفّ عن البوح والدوران،لترحل نشـوانة عبر الجهات القصـية، سـعيدة بهيمنة جمالها. كما أغاضـــها ذلك الصـــندوق اللعين الذي يطلقون عليه اسـم التلفاز، كمنافس شـرس، اسـتحوذ وحده على فنون الســـرد والرقص والغناء، بل وصـــل به الأمر أن يفكر عوضا عن البشر الذين استسلموا لمشيئة سحره. ومن ثم، ها هي مرة أخرى، تجد نفسـها أكثر إهمالا بعد الانتشـار السـريع لأجهزة الحاسـوب التي كانت بلاغة غوايتها أشـدّ فتكا واســـتباحة وهي تســـتبدّ بعقول الناس وخيالهم، مما زادها غيضا على غيض.ولأن البهاء لا يغدو بهاء إذا ما أمسي شريدا بلا مأوى، وحالما يتحول إلى عطب مقيت بعد أن تتفشّـــى الأورام في خلايا نسيجه. هذا هو المصير الفاجع الذي اعتور حكايتنا ها هنا، فما من شيء يسلم من مغبّة النسيان، حتى الحكاية التي كانت في يوم ما ســـلطانة متع وخزائن معرفة، قد تحولت فجأة إلى كائن عليل لا خير فيه. لهذا بيّتت حكايتنا

الصغيرة أمرها على الانتقام من خائنيها الذين جحدوا هباتها، وتنكّروا لفضـائل جمالها.فهل يعقل،قالت الحكاية:أن أمسـي هكذا بلا أحد يصـــغي إليّ، كيف يكون ذلك وأنا لا حياة لي خارج صوتي.وبعد تدبير حاذق لا تعوزه الحيلة، عثرت الحكاية على طريقة ماكرة للانتقام، فالحكاية كانت هي الأخرى تملك من الســحر ما يجعلها أكثر قســوة وهي تتفنّن في الإطاحة بمهمليها، الذين خدعوها، ورحلوا بحواســهم بعيدا عنها .هذا ما كان من أمر الحكاية يا مولاي، فكيف سـتهدأ ، من دون أن تثأر ممن تظنّهم غادريها الذين تألبوا عليها ، وخانوا عشــرتها، فلن يغمض لها جفن ما لم تسترد عرشها، وسوف تحشد كل ما اذخرته من فلول قوتها، فلها غيلانها وغاباتها وخدمها من مردة الجن. لكن كيف ســتنتقم الحكاية وما من أحد يصــغي إليها، هذا ما ظلت زمنا طويلا تفكر فيه ليل نهار. هل يقتضيها الحال إعادة صــياغة نفســها من جديد لتكون فاتنة وباهرة حتى تستأثر بقلوب العشاق من سمار الليل. ولأن البشر هم خصــومها لم تفرق بين فقير أو غني، فالحكايـة الغيورة عمياء، لا تبصــر وهي في هوجة انتقامها بين حق وباطل، بحيث يختلط عليها الحابل بالنابل، ويضــيع البريء بجريرة المذنب، ولم يكن العقاب الذي افترضــته الحكاية ضــد من تصــورتهم من أعدائها، ســوى خطيئة جديدة ارتكبت بهوس، بعد أن قررت أخيرا اقتحام الصحف والدوريات ومواقع شبكة العنكبوت بقوة كاســحة لا هوادة فيها، وأنها لن تتوقف حتى

تشفي غليلها .فها هي تفتتح عتبة نسيجها: كان يا ما كان في قديم الزمان، كان يعيش في إحدى القرى البعيدة فلاح مع ولده وبنته، في بيت صـــغير ،وبعد أن ماتت زوجته, اقترن بامرأة أخرى , وكانت هذه الزوجة قاســـية جدا مع طفليه، وكانت توحي لزوجها بأنها تحبهما، بينما هما يكرهانها. وذات يوم تظاهرت بالمرض فسألها زوجها عما المّ بها فأخبرته أنها مريضــة وان علاجها كما نصــح الحكيم، هو أن تأكل من كبد ابنه حتى تشفى. وكان زوجها يحبها كثيرا، فصدقها وقام بذبح ابنه وإطعامها كبده. بكت الأخت الصـــغيرة حزنا على فراق أخيها، بكت وبكت، ثم بكت حتى تحولت أيامها ولياليها إلى انهار من الدموع، لكنها ذات يوم قامت بجمع عظامه ودفنتها قريبا من شـــجرة زيتون كبيرة، وطفقت طيلة الوقت وهي تندب وحيدة بمحاذاة القبر، من دون أن تكفّ عن البكاء. وفي أحد الأيام نبتت في موضــع قبر أخيها شــجرة صــغيرة، وقف على إحدى أغصانها طائر اخضر، أخبرها بأن الروح التي تسـكنه هي روح أخيها، ثم صـعد محلقا في السـماء البعيدة. شـــرعت أخته تناديه بصـــوت مجروح وهي وتركض تحته من سماء إلى سماء، لكنه قد طار بعيدا، حتى توارى عن الأنظار. فعادت المســـكينة إلى البكاء وهي تدعو أن يرجع الأخ الذي صــار بهيئة طير أخضــر. وفي يوم من الأيام كانت زوجة الأب تتجاذب أطراف الحديث مع جاراتها من نســـوة الحيّ، فوقف على مقربة منهن الطائر الأخضـــر، وقد طفق يغني بحزن

شـــجي: "أنا الطائر الأخضـــر/ أبي ذبحني/ وزوجة أبي أكلت كبدي / وأختي الحنونة لملمت عظامي/ ودفنتها تحت الزيتونة ". وكان غناؤه جميلا يأســـر القلوب، فطلبت منه النســـوة أن يغني أكثر ، وأكثر، فاشـترط عليهن أن يفتحن له فم إحداهن، مشـــيرا بمنقاره إلى زوجة أبيه، فامتثلن لطلبه، فحلّق مرفرفا ،ووضع حبّة سـم صـغيرة في الفم الفاغر، قتلت المرأة على الفور، ثم طار إلى أخته فوجدها مع صـويحباتها، يقمن بجمع الحطب، فاخذ يغني لهن: " أنا الطائر الأخضـــر / أبي ذبحني /وزوجـة أبي أكلـت كبـدي/ وأختي الحنونـة لملمـت عظـامي ودفنتها تحت الزيتونة " أعجبت الفتيات بصـــوته، وطلبن منه المزيد من هذا الغناء ، فاشـــترط عليهن أن يفتحن له حجر أخته، فرمى فيه بقطع بارقة من ذهب وجواهر حتى امتلأ حجرها . وهكذا عاشـــت البنت بفضـــل هذه الهبة في هناءة وحبور، بمعية أخيها الحنون، الطائر الأخضـــر، أما أبوهما فقد ذهب عقله من هول ما حدث، وهام على وجهه ضـــائعا في الصحراء الغريبة. هكذا تشي بنفسها هذه الحكاية القصيرة التي رغم قســوة مضــانها، إلا أنها قد ظفرت بما تصــبو إليه، ومن يعتقد بأن الحكاية المتمثلة هنا بهيئة امرأة قد ماتت بفعل حبة السـمّ التي أسـقطها الطائر في فمها، فهو مخطئ تمامـا، لأن الحكـايـة لن يروقهـا أن تهنأ الشـــقيقـة وحـدهـا بالذهب، كما لن يهدأ لها بال طالما ظل الطائر طليقا، لذا،

ومهما حدث، لن تموت الحكاية أبدا، وســـتعود مرة أخرى وأخرى، بأشكال وأطياف كثيرة لتسرد علينا سيرة طوافها.

نصف الجسد .. نصف الموسيقى

(1)

لا بأس يا أمّي، أنا بخير، وما من شيء يزعجني.

غرفتي دافئة، والطبيب حاذق والممرضة حنونة.

ما من شيء،

فقط ســـهوت الليلة عن تنظيف أســـناني من نتف الحروف الكسولة،

كأنّي سأدع العبارة التائهة رهنا بمخالب لهفتها،

وكلّما وخز الجوع مخيّلتي ســألتهم الصــور الضــالة التي غفل عنها الصيّادون،

ثم ســـأفكّر في إيجاد مخرج من هذا القتام الذي يجثم على صدري/

لعلّي أنقذ ما تبقى من كلمات، بلا أثر لهروبي/

سيبحثون عني تحت سجف الأشعار الغامضة وأقبية المجاز

كأجمل أسير لتيه البلاغات وخيانة المعنى/

سيفتّشون في قوائم الموتى والمعاجم والموسوعات

وسجلات الشرطة والسجون والمستشفيات،

وفي جميع محركات البحث التي في مواقع السماء/

لكنهم لن يحصدوا سوى المزيد من السراب
ولن يعرفوا ما إذا كنت من الشهداء أو المفقودين
أو في عداد الأسرى/
سـأنقرض تماما كأي دينا صـور أو خرافة تفسـخت أجسـاد قاطنيها،
وغدت محض غبار من رفات لا اسم له،
غبار يتطاير حزنا كلما خدشت مشاعره معاولُ الأثريين/
سأحرّض فاتنات قصيدتي على غواية الجزر المجهولة.
في كل جزيرة أرسمُ مملكةً جديدةً للخيال والمطر/
وفي كل غيمة أعتقُ الأعشابَ والأرانبَ والقصائدَ لتصلّي على طريقتها/
سأتركُ أصابعي حرّةً ترقنُ زغبَ الفكرة دونما رقيب/
أتركُ ظلالي كلّما خفقت أجنحةُ الرغبة تحلّقُ لاهبة،
إلى أن يحطَّ بها التعبُ فتغفو على صدر شرفة يحرسُها قمرٌ وفيّ.
لهذا أكتبُ الآن ما يتبادر لذاكرة أصابعي من حمّى الساعة /
لم يبق لي غير القصـيدة أغوي بناتها بعد أن غلقتُ جميع أبوابي
التي طالما استقبلت الضيوفَ والعابرين وأبناءَ السبيل،
أبناءَ الصدف / أخوةَ الرماد الذين أطعمتهم ثريدَ طوافي/
لم يبق غير هذا الرعيلُ من الأسرى الفارين خارج جحيمهم،
وهم يقفون على عتبة خروجي/

لم يبق سوى أن أهديكم هذا النثر الذي كتبته كيفما يريد /
حادسًا بأنّي سأتماثل قريبا لهزيمة أورامي/
فلم يبق شيء أربّيه سوى النسيان/
أريد أن أمحو الكثير من الأنين، وما فاض من عناوين الألم/
لا شيء يخيفني الآن كما يخيفني جسدي.
لم يبق لي إلا الوقوف بكبرياء نافضــا ما يغزو شــراييني من حقن وشكّ وصراخ.
وإن يكن ما تبقى: نصف ظلّ يترنح.
يكفي نصف الجسد، نصف الموسيقى.

(2)

لم يبق لي إلاّ أن أعلّق سترتي على مسمار القصيدة،
وأجلس متـأهبا ألف ليلة وليلة أخرى بلا نوم،
فقط أفكّر كيف أبرهن لسنة 2036 بأنني أكثر عنادا مما يتوقع الأطباء/
ولن ألتفت للخمسين صيفا الماضية/
سأبدأ من صفر الحكاية أو من حكاية الصفر/
من طق، طق. حيث لا أحد غير مفتاح العمّاري داخل هذا النصف النادر
من الجندي المتروك على حافة منفى/
داخل ثيابي الوحيدة التي تتّسع لفخامة الضحك/

سأحشد كل أسناني لرقن الحروف المنتظرة
لرقن الليل مخلوطا حتى حافته بلغة الحليب ...
لم يبق إلا أن أرفع قصيدتي عاليا، لتظلّ مغوية مثل عاشقين
في قارب ثمل،
وبسيطة وحنونة مثل أمّي
بغض النظر عن هشاشة الضوء، أو غشاوة البياض الذي
يترصد ظلمة الحكمة
سأتقدّم حاشدا الجوع في مقدمة جيشي/
أطلق النار على العروض دونما اكتراث بثرثرة الحمقى.
وكلغم من الأظافر الذكية، أمزّق جلد المعرفة/

(3)

تستيقظ ذاكرتي أو تنام، هذا شأنها،
فسيان عندي أن تضأ نافذة في هذه الحكاية أو تلك/
أن تبتلّ سرّة شهرزاد أو تجفّ/
أن تترهل مخدتها بالدموع أو تتنفّج بالآهات/

أن تعطش أوردة ليلها أو تغرق في انهار من العسل
والمنّ والسلوى.
أن أجد امرأة تصلي لأجلي أو تمطرني باللعنات/
سيان عندي أن يطلق عليّ النقّاد: شاعر حداثة، أو حذلقة
أن تكتب القصيدة على طريقة الهايكو أو صوب خليل/
أن تمدح الكلمات صمتها، أو تنعي خيالها،
فما من أحد سيلتفت لعبوري
سواء ثرثرت في المقهى أو ابتهلت مع المصلين في صحن
الجامع /
أن ينادى على اسمي في محافل النجوم أو في أقبية
المرضى/
أن أقف على أقدامي مجددا، أو أسجى في تابوت الخواتم /
أن أجد غيمة مقرورة في جيبي أو حمامة تنوح بين أوراقي
أن استقبل التعازي في موت الشعر أو موت الغابات /
أن أكون مليونيرا أو شحاذا
أن تعلن حالة الطوارئ ويحضر التجول في شوارع النت
أو في بريد المراهقات/
أن يستغفل اللصوص حراس السماء ويسرقون الأمطار
والمجرات وقوس قزح،
أن يكمن العيارون لقافلتي وينهبون الحلم والقطن والملح
والأوكسجين وطائرات الورق/
أن يعترض قراصنة الأثير شاحنات المعنى/

أن تنتشر الفضائيات أو تختفي البحار من خارطة الشعر فجأة
لتظل النوارس والعصافير والأحلام عالقة في الفراغ
أن أكون أو لا أكون في معاجم الشعراء والعشاق
أو حتى في معاجم الصعاليك وسجلات المواليد ...
أن أقيم في قاع بئر، أو على فوهة بركان/
لا بأس.
عندي ما يكفي من السديم وخزائن الثريا.

(4)

لم يبق شيء يمكنه أن يكون صفة أو شطيرة خيال
أو قبلة تحتفظ برحيق مودّتها/
لا شيء في السرير يزعجني غير نصفي.
لن أحتفظ بعد الآن بتفاحة في القصيدة أو وردة في كتاب
مندّى/
ساترك أنامل حبيبتي لحبيبتي/
وفم عشقي للغبار.

لأنّي قررت طرد نصفي من نصفي

فاصدا كل أوردته وحباله الصوتية من شعري وتاريخي/
سأكون العارف الذي لا يعرف الموت حياتي.
.....
هذه القصيدة لك يا شقيقة نومي،
افْتحِيها كي تطير.

(5)
لم يبق سوى أن أبقى نبيذا لا أحد/
لست أدري، تاه يساري،
أو ضلّ يميني يا فقيدي لا أحد/
لا، لن أطرق الباب مرة أخرى،
ودعني، فلا أرى في ما أرى، شرق ظلي/
تاه التفاح عن تيهي
وهذه الصحراء أضحت ضيقة على حلمي النحيل،
وقصيدتي، لا .....
لا تحتمل قصيدتي جراحة أخرى،

تبدّد نصف توقي ونصف تاريخي بين طرابلس وروما.

لم يبق شيء في ما تبقّى
غير هذا النثر من نصف الجسد.

_____ فصد معلن لتاريخ الوله

(1)

في هذا الليل البعيد، لم أجد يا أبي شرفة صغيرة،
أضع خدّي على نقاوة رخامها، مرتشفا نكهة برودته المنعشة،
لعلّي أستمتع قليلا برؤية الريح والأطفال والحدائق والأعياد.
لم أجد بابا رحيما أطرقه،
أو قصيدةَ نثرٍ بريئة من معطف بيرنار.
لم التق شاعر حداثة، إلا ويدّعي الصداع وعبادة رامبو
وغزو الحانات، وتفكيك الجسد،
وطرد الجنّ من أودية الموسيقى.
لم أجد في صندوق بريدي رسالة عشق واحدة
أثق في نزاهة حبرها
لكي ألجأ إليها كشاعر أو عاشق أو متسول،
لم أجد وردة أطمئن إلى شوكها
حتى أضعها كتاج على رأس حبيبتي.
لأني لم أجد في آخر طبعة رديئة من كتاب (طوق الحمامة)،
حبيبة واحدة لم تغدر بي نزوتها،
كلما سرقني الوجع بعيدا عن مزاج مخالبها.

فما أكاد أتشبّث بمتن عاشقة حتى تنهار جدران محبّتي
إثر أول هزّة ليقين الخديعة.
وأيضا لم أجد في كل المصنّفات الأثيرة،
من ألف ليلة وليلة إلى (11 دقيقة) لباولو كويلهو،
مرورا بالروض العاطر للشيخ النفزاوي، غير نسخة رثّة
لامرأة مفتونة بتاريخها السرّي.

(2)

إذن، يلزمني يا أبي فصد هذه الهشاشة التي
تجعلني أتشظّى تيهًا.
كلّما تنمّرت قطةٌ متوحشة على شطيرةِ قلبي،
انهمرُ متضرّعا تحت براثنها/
ومثل صوفيّ شفّه الوجدُ، أقبّلُ أحذية كل الأنبياء،
لكي يقودوا شــعوب الأرض بقضّــها وقضــيضــها إلى الجنّة
الموعودة،
ويتركوا لي صدرها جحيما أتمرّغ على تاريخه بفم الغابة،
وذاكرة المجاعات.
لكني الآن أتوسّل لهم خاشعا،
أن يأخذوا جميع المعاجم الحمراء ومعابد العشق،

وحقول تفاح الغواية، ودواوين الأشعار الثملة
بسكر خلاعتها،
إلى المتاحف والمخازن والنفايات.
لأنّي لم أعد مولعا بفكرة الموت بين أحضان غيمة سكرانة،
أو على صدر أنثى حارة،
فقد طلّقت شغفي بالنجوم والنبيذ والرقص،
والسفر في قطارات الليل، واختراق السّرر الفاتنة لعواصم
اللهو وأقبية المسرّات.

(3)

لا شيء الآن يا أبي يجعلني سعيدا
سوى النوم في صحراء قصيدتي،
في كهوف صمتها، والنظر إلى جدرانها البدائية
خالية من المسامير والضوضاء ومقابس الكهرباء.
قد انتزعت كل اللوحات وصور العاشقات وعناوين الرغبة من
خزائن ولهي. وسأظلّ فيما تبقّى من رحلة الرئة،
أعني رئتي التي امتصّت كل أنواع السموم وحقن الكيماوي،
وغبار القارات النائية. رئتي التي رشفت رضاب الألفة،

وسحب التبغ الرخيص وعطر الحرائق وعواء الحروب
وهي تلفظ في شرايين قلبي حمّم منجنيقاتها،
من دون أن تهبني سانحة آمنة.
لكي أحمل خيالي نظيفا إلى السرير،
وأطفالي إلى برّ الأحلام البريئة
وجراحي إلى الجنّة.
سأظل يا أبي متيما بقصيدتي، وهي في أبهى تجليات عريها،
صامتة وماكرة ومستوحشة، ووحيدة كلغم مهجور يترقّب
فاجعة ضـــحاياه من الغاوين الذين ترمي بهم النزوات على تخومها،
وقد علقوا بحراشف جبّها الشبق.
ما أن تلمس أصابع شهوتهم الثملة حلمة الظلمة النافرة،
حتى تتفتّت قباب لذّتهم،
وقد تحولت إلى مزق من الحكايات المحزنة.
مدينا في ذلك لخطفة نيوتن،
لحظة أن علقت فراشة ربيع بشباك زهرة ضارية.
وأيضا للفاتكة بفتنتها الضالة، التي حولتني من عابد مهووس
بخرائط المتع، إلى راهب سرّ، وكاهن خفاء.

(4)

قد تعبت يا أبي، قبل موتي، وبعد موتك/

حشد عنيف من دبابيس بغيضة تكمن عند حافة صوتي

متربّصة عودة القصائد إلى الشفاه المرحة.

كلّما قفزت خارج كفني، متخطّيا عتبة خوفي من البياض،

لمحت صورا رثة تتفاقم غاضبة من أخطاء الرماد.

تلك جريرة سياطك يا أبي/

سياطك التي تركت على جلد تاريخي وزرا هائلا من الخرائط

والخطوط والتضاريس الدامية/

سياطك التي تغضب بهوس مشتت/

أنا الكهل المنبوذ الذي لم يكن قبل قليل

سوى صبيّ من خشب هشّ

وحذاء أجرب، وبضعة أحلام شاردة.

هذا كل شيء يا أبي،

باســـتثناء وحيد يثير بلاغة النســـاء، ظل لزمن طويل مغويا

وعنيدا،

ينتزع الحروب والقصـائد والأزهار من صـمتها ويصـخبُ بلذائذ

طازجة.

لم تكن سوى الخديعة ذاتها
التي خرافة وهم يتكوّر بعنف أشدّ حنكة.
كانت الخطيئة جارة فتنة.
من فروسية عطيل وخلاعة أبي نواس،
إلى وصايا الحكيم لوتسو في معاقل الطاو.
فيما كان السرطان الماكر عازف الألم،
وصاحب النظرة الخرساء والورم المتهتك،
بعد خدعتين ينبلج ذكيا وهو يتدحرج في أحشائي،
كوابل من الخيانات الطائشة.
ثلاث سنوات لا هوادة فيها، تتضور مهجورة بصديدها وطميها وصراخها.
هذه بعض مآثر ولهي يا أبي تتبختر بعشقها،
فانتظر ريثما تتمزق البراهين.
انتظر يا أبي.
أيها الشرطي الذي غادر نوبته قبل أربعين شتاء،
أريد أن سألك الآن عن بكائي الوحيد،
عندما كنت تضربني بحزامك الجلدي
وأنا أستغيث متشبثا بسروالك الكاكي.

: أرحمني يا (بَبيّ)

لماذا توقفت أيها الحنون عن ضربك لي،

وهجرت أوجاعي غير عابئ بندوب أحلامي،

لماذا قررت أن تغرب عن رمادي من دون أن تترك لي جمرة

واحدة في موقد الأيام، أو بريقا سوى غضبك/

لماذا يا أبي أنساك كل هذا الوقت

لأطالبك الآن أن ترى ما آلت إليه نطفتك الماجدة/

أسألك أن تستيقظ ولو لبرهة قصيرة

لكي نتحدث قليلا في شجون العزلة،

والمرض والخيانة والسفر والطحين،

فمنذ دهر وأنا أتألم،

وما من أحد هنا غير المرضى/

ثمة كهل مستجد تسقط الجريدة عن السرير وهو يشخر/

ثمة ممر مكتنز برائحة الدواء /

ثمة حطام يشبهني، يكتب سيرته الذاتية في الغرفة 901:

رجل مهووس بالعبارات الضائعة،

أحيانا يبتكر صنفا جديدا من الخيال/

يبتكر صلاة أخرى تليق بالألم/

يضيف المزيد من الموسيقى ويغّني في داخله.

رجل بثلاثة أسماء نظيفة /بثلاثة وجوه تتناسخ،

يدخل معاقل الفتنة، معلنا كقارة تحترق/

رجل لا يعدّ وحيدا وكفى/

أو محض مريض ينتظر جلسة الكيماوي /

لا يعد عاشقا يبكي على ليلاه،

ولا أي شيء قد يتكرر دون زلزلة،

فقط محض رفات على سرير مجهّز بالريموت كونترول/

رجل ليس لديه ما يتركه للريح

سوى المزيد من الخيول

والعنفوان والأساطير/

ليس لديه ما يخسره غير الضحك من نفسه /

ليس لديه أحد سوى العالم ثملا بالنظر إلى رجل بثلاثة

وجوه ثرية بالحكايات. يحيي ممرضته بلطف:

صباح الخير أيتها الوضيئة،

التي فمها نغم مصقول/

اللامعة كجبهة صوفي خجول /

المنقرضة بالنظر إلى صرامة بهائها الفسيح /

الرقراقة كقصص الأطفال عند النوم /

المجلوة من الداخل، يا سرّة الماء،

الذكية أسنانها حين تبتسم.

(5)

رجل مغمور بالغيب. يحيّ نفسه

حيث لا أحد يوم الأحد،

: صباح الخير، سنة أخرى، أيها الفحل/

أكتب ولا تكترث/

سيخسرونك إذا سهوا،

سيخسرونك أيضا إذا ناموا بعيدا عن خيالك،

سيخسرون عناوين ألفتهم/

سيخسرون المآثر التي اذخروها لعواصم أخري،

غير هذه الحنون التي تشملك بمشتقات صدرها /

سيخسرونك مرتين لأنهم كذبوا حين تجاهلوا

ما تنطوي عليه مخيلتك من حدس وأنهار وحدائق وغيوم.

الذين خشية أن يفقدوا مفاتيحهم أهدروا المزيد من

النوافذ والتذاكر والرؤى،

سيّجوا دسائس أهوائهم بالأسلاك الشائكة

وفقدوا بهاء النوم /

لم يستقبلوا سوى الفجاءة والغبار

فتشردت موسيقاهم

وأمسوا شتاتا بين قرقعة النشاز.

لم يألفوا غير المزيد من السواد وفزّاعات المجون /

لم يجدوا غير تفسّخهم خليلَ ليل /

لهذا ظلوا يخسرونك كلما نأوا يا لطيف عن لطفك /

وأنت من جديد.

كل صباح الخير: قصيدة أخرى.

تستخلصُ خيمياءَ الضوء من منازل الرماد.

هكذا أولا، وهكذا أخيرا،

: يصل النثرُ الوحشيُّ إلى مطافه الآمن،

بمخيلة واثقة قابضًا حجّةَ اليقين،

من دون أن يهزأَ من روح الموسيقى،

أو يخلعَ حدسَ النار.

ذئب الدلالات

(1)

عوضا عن العمل كحمّال لدى (آرثور رامبو)،
سيكون السرد أكثر متعة لو اقتفيت حلم الراعي في
صحراء (باولو كويلهو)،
من دون أن تشدّ الرحال إلى مصر،
لتكتشف أخيرا،
أن الكنز تحت قدميك.

(2)

لم يتبق في ذاكرتي منّ رواية (مائة عام من العزلة)
سوى صرخة (اركاديو بوينديا)
: تنحوا عن طريقي أيها البقر،
إن الحياة قصيرة.

(3)

جنديٌ يحملُ بندقيةَ كلاشنكوف
وثلاثةَ مخازن متخمة بالرصاص
وقلبًا محشوًا بالهزائم
اقترحَ على نفسه كتابةَ قصيدة.
جنديُ المشاة الخجول،
يعثرُ على امرأة تستحمَّ في كلمة
على سماء تتنفّسُ تحت جلده
على كهف صغير في كتاب منسيّ
على فكرة جاءته صحبة النار.
يحملُ بندقيةَ كلاشنكوف
وثلاثةَ مخازن للقصائد الحية،
قال: القواميسُ قطيعٌ من الغزلان البرية،
وأنا ذئبُ الدلالات.

(4)
يموتُ الذئبُ،
يختلُ إيقاعُ القصيدة.
يموتُ الشاعرُ
ترثهُ اللغاتُ جميعًا.

(5)

كنتُ أظنُ بأولوية إنقاذ العالم

وحين اكتشفت خديعةَ الشعراء

قلت: يكفيني إنقاذ قصيدة واحدة من التلوث.

(6)

ارتكبُ القصيدة

كبرهان على ضرورة الرئة.

(7)

لأنكَ لا تواجه عدواً واضحًا

سيتكفل الأحباءُ بهزيمتك.

(8)

كل معاركي كانت خاسرة

عدا الموت في القصيدة.

(9)

أريدُ حذائي.

أريدُ أن أندس في كفن قصيدتي

وأفكر بهدوء في الذين

من كثرة ضعفهم هزموا الغابة.

(10)

أغلق عينيّ

لكي أستمتع بضوء قصيدتي.

(11)

أغلق نافذة واحدة في جدار الريح

لكي تفتح القصيدةُ ملايين النوافذ.

(12)

يستلهمُ الشعراءُ نصفَ معجزاتهم

من طفل يلعب.

(13)

علينا أن نشكر الجحيم

حين نحلم بالجنة.

(14)

حين عرفتك، جهلت نفسي.
أحببت جميع أوصافك، ومحوت صفتي.
خلقتك على صورتي،
ففقدت وجهي.

(15)

فراشة مزهوة على كتف وردة ميتة
هذا ما أفكر فيه.

(16)

مثلما يحق للشمس أن تغرب
يحق لك أيضا حرية التشبّث بقصيدة أخرى.

(17)

في أول الأمر ظننت أن حبك فرض،
وقربك فريضة.
وأن مستقبلك شهوتي
وشرفتك سمائي.
في آخر الأمر أضحت أسماؤك
أقفال ظلمتي.

(18)

في باب الوله.

قال الشيخ جلال الدين الرومي:

العشق زواج الروح.

قال بورخيس:

" في اعماق المرأة شخص آخر، متربص ".

(19)

كلّما تذكرتك.

تستيقظ أربعة أنهار في رأسي

(20)

في حوزتي الكثير من عناوين الأشجار

والطيور وقصائد النثر.

لا أتنصّل من اغتيال الفراهيدي

أو من شغفي برقصة زوربا

(21)

ليس العار أن تسقط مضرجا بالسيول والكوارث

العار أن تهرب من حتفك.

(22)

حين يختارك القدر لمنازلة نفسك

لا تغادر خندقك.

(23)

الآن وقد أضحى الانتظار منبوذا من السابلة

ماذا سنفعل يا صديقتي بكنوز الغبار.

(24)

فيما يشبه الليل

السماء تمطر بالرسائل وجثث الغيوم

والشوارع تركض.

(25)

دخلت الممرضة بصدر مرح،

أطفأت النافذة

وأسدلت الستائر.

(26)

آه يا غرفة الحليب

جدراني ترتجف.

_____ أغادر خيالي

تاركا نثر شوارع نبذته الأنساب

(1)

لست سوى غياب يتأبط كنز رماد،

سوى أفق يرتدي نفقا.

أنا روح النار.

(2)

أتبع وسواس يقيني، فأراني قامة شكّ.

أتبع ما يصهر معرفتي ويذيب سؤالي.

ما يتحقّق بي/

ما يأسرني ويأخذ فمي: شطح جداول من نور

ومسافة وجد،

هذه التفاحة شهقة متن

وبريد فتنة.

(3)

أتبع فراغا أملؤه نثرَ شوارع غفلته الأنساب،

نثرَ غرف.

تقترفُ الأوتارُ عزفَ مخابئها.

نثرَ نساء ومنازل شغف،

لعبت بشهوتها كؤوسُ السمّار

وذابت في سرد مفاتنها الأقمار.

(4)

أتبع ال هناك من هنا

كل رمل هناك يتوحّد هنا

كل ريح تخدش بابي

أو غيمة تكذب في سمائي هناك

وسادتي هنا

هنا أرق لليل هناك

أصابعي تقتفي خرائط صوتها

وهنا، كل الذي هنا .....

طوافي هناك:

رياحٌ تتشرّد في لغتي.

هنا شتاء وحيد يوقظ صيفا هناك.

هناك .... أسماءُ صور تتمزّقُ هنا.

وكل ذخيرة فيض هناك

تعلن قتلي هنا.

أنا هناك، لأني هنا.

(5)

أتبع ما يجعلني

محض طريد لا يتعب،

الباهرة.

وهي تمجّد سواد كموني

وتفضحني لأبدو أبلغ غموضا.

أتبع ما يوحدني حين أتعدّد،

ينفيني خارج براءة وحشي الغافل،

يبكيني منتشيا بميراث رحيلي.

أتبع حجبي

مزهوا بمآثر ظلّي.

(6)

ما من شيء تملكه فرشاتي المنبوذة

سوى تكسير الألوان

فغدت معجزتي نورًا يصحو خارج

خديعة منازلها

ماذا أصنع.

ظلامي بصيرة برهاني

جسدي في (برلين)

وخيالي معتقلا في (باب بن غشير)

أتبع حدسي.

(7)

في برلين سلخت الليل أكابد فزعي، خشية

أن يغزو هتلر غرفة أحلامي

أن يستقبل نثري زوّارا من نسل الموتى.

عقارب صحرائي هناك

تلدغ لغتي هنا.

لم اجن من هذي الحرب سوى عكاز

وثلاثة أورام تتبختر وخيال مهجور.

لكن ما لم أفهمه حتى كتابة هذا النثر.

لأي شيء ظلّ اسمي يبتسم؟

.....

(8)

معرفتي تمحوني.

لا أثر يهرّبني.

(9)

لست سوى نوم يتشتت،

وتيه يتناسل،

تجمعني بذرة خوف،

غير ملتفت لمن يغنم الذهب

ويخسر حكمة المعرفة.

لست سوى سديم يتململ.

الماء بعض صفاتي.

صور سراب.

تتعدد عناصر سفري فيتعذر غزوي.

(10)

لست سوى نفير العابر

وأنا أغادر البشوش بعين راسخة

تقتحم الداخل بعناد الأعمى،

ولهفة السبع العليل إلى الصيد،

وسأم المنبوذ الذي

لا أحد إلاّ هو.

(11)

أغادر نومي شريدا،

تطاردني أحلام حافية وحكايات خفاء/

أتبع خيط برهان يتقطّع

فيضيع مسقط ذاكرتي

ويتشظّى بريدُ حنيني.

أغادرُ، "وفي النفس حاجات إليك كما هيا "

(12)

أتبع خلايا العطب ســـاخرا من وداعتها الماكرة وهي تتبختر طازجة كريح مطمئنة / بهيئة بخار لجهات توارت خلف هبوبي، وأشـــياء من هبة الشـــطح، قدّت من نعاس وعســـل وليل، وإشـــارات يحتمل ضـــياعها كالصـــور والمفاتيح والرؤى والحدائق.مخلوقات ســـتخرج بعد حين، لها طعم نســـاء وحروب، تشـــتّت بريقها بين المحطّات عندما لذتُ بالخفاء مستغرقًا في إصغائي لشيء يتمزق منطويًا على قلق ثقيل يخصـــني وحدي. وباءٌ يُهدر حليبَ كياني وملحَ نشـــيدي، أينما وليت بصري يتزوبعُ غبار فتنة.

(13)

أتبعُ خُطى وجعي منتظرًا رحمةَ مولاي .....

لعلّي أغادرُ فخامةَ ألمي.

غير آبه بجيوش الأسى.

أتبعُ نسياني حيث كل ريح محض خراب

مهملاً جسدي الذاوي منطويًا على أسلاكه الشائكة،

يُصغي أخيرًا لضراوة الخواتم.

لم يبق عود ثقاب أو عواء بارق أدّخره لصعودي
سوى جلد ترهاتي،
يكسو بخجل ماكر عظام بلاد هشة.

(14)

أغادر المنبوذ محفوفا بسهو آمن
كانت أثوابي تتسع
وكانت أمي تدعو الله أن يشفي سقم مخيلتي،
وبناتي يسعين إليّ بقناني العسل
وطحين الألفة المخلوط بذاكرة الأعشاب وأودية الذكرى.

(15)

كأنّي عرس غياب.
وطرابلس تتأبطُ مستقبلَها خارج دثاري
تعطيني ظهراً من قطن مغشوش.
فغدت غيومي يا أبتي فاكهةً
تتبعثرُ خارج أسوار خيالي.
وأيامي جنونٌ،
وأقفالٌ خائنةٌ تَرعى هياجَ جنوني.

(16)

كانت تلك فاصلة هوجاء بيني وبين براثن أخطائي.

فمن يحمي نباهة شكّي ونحاس يقيني

وأنا أغادر سماء لغتي محموما،

تحملني إلى الجبّ الآمن أكتاف جلاسي.

(17)

أغادرُ الضحكَ الظافرَ مهزوماً/

لا أحد اليوم يُحييني.

تغرّبَ الغاوون، وتلاشت أحذيةُ العبّاد.

أنخابي من ورق يحترق مبلولا،

وأسمائي بضع كلمات مترعة بالريح،

تدورُ بين الأبواب.

_____ يا أبوابها التي ..

(1)

أيتُها المستحمةُ بشمس الألفة، يا عطية الله،

يا أبوابُها التي بلون الحنين،

أدخلك مرةً أُخرى بلهفة العارف الذي شفّه الوجدُ.

فكوني حنونة يا حنونة، كعهدي بك قبل سقمي.

ودعيني بعد غياب هدّه الوهنُ أستنشقُ بارودَ محبتك.

ممدداً قرب فمك.

أية كلمات هذه التي تحترق ولا يُبصرني رمادُها

عاريا أُبعث من جديد؟

الأصابعُ وحدها تعصرُ الليلَ ببطء،

تستخلصُ الياقوتَ من اختلاجة الندى على مساربك الدائخة

حيث لا قبر سوى لذة النظر.

هكذا أعترفُ بالنار وما بعدها /

النارُ التي وطنُ الحكمة،
جارةُ سرتك الماكرة/
فكيف لا أكون عبدًا صالحًا للموت،
من دون خطيئة تتحرر /
وكيف أكونُ جنديًا إن لم تكوني غربتي وتاريخها،
ولمن أعزو أسري إن لم تعتقلني شهوتُك قبل الكلام.
فما تلك الغيمة
سوى روح تائهة من سلالة بحر نائم في صحراء بعيدة.

(2)

أيتها الحكايةُ الطازجةُ في فم طفل يتهجّى لغة الحليب،
حدثيني عن حلمي القديم،
عن ذلك الذئب، وقميص يوسف.
أعرف أن الغابات البريئة ستنقرض /
لهذا، خيالي يتألم وقصائدي وحيدة.
فقط أرجوك أن لا تمدحي النفيرَ الجريءَ الذي كان جسدي.

فلم أعد أراه كما كنتُ أحلمُ بالخيول الأصيلة.

ولا تنظري يا حبيبتي طويلا إلى النجوم الجافة،

قلبي تحت قدميك

: صرختي تغلي، وظلّي يختنق.

وحين أُهديك نثرًا، باركي جنونَ نثري،

ورأفة بأمّي، لا تسأليني عن ذلك الجندي

الذي ضاع في حب الله /

فلم يبق شيء غير هذا السفر القصير،

فلا تبكي كأنّي آخر اللغات.

ثمة من يتربص بحيواناتك الأليفة،

ويكمن خلف شرفتك مستمتعا ببخار خيالك.

لا تقولي: أن العالمَ بعدي، سيفقد نكهة البحر.

احتفظي بهذه البلاغات البريئة للغيابات الأكثر حظا؛

لست معنيًا بأعياد الموتى.

نافذتي كئيبة، وجدراني ترتجف/

فقط، حدثيني يا حبيبتي.

منذ ثلاث سنوات لم أسمع صهيلاً

أو المس رملاً؟

لساني يعود إلى فطرته،

وقلبي يدخل في طور اليرقة.

_____ على طريقة ابن عربي

(1)

قال الشـــيخ ابن عربي: "الواردُ الذي يرد من تغير المزاج لا يعوَّل عليه".

هو تماما صنو الكلمة التي تتشبث بفراغ ألوانها، زهرة نرجس مفتونة بجمال صورتها: فراغٌ غُرِّر به وحسنٌ لا يعوّل عليه،

هذا ما تجلّى به خيال الرائي، لأن معرفة الحقّ تعتمد على ذات العارف، لهذا تعدّ الكلمة المقذوفة في بئر مجهولة، ما من أحد قادر على توصيف رقراق ضوئها أو التنعّم بارتشاف رضابها، محض بريق خادع لا يعوّل عليه.

الكلمة التي لا تشــاطرك ثريد ســرّها اتركها لســبيل أقفالها، فالصــندوق الذي ينطوي على نصــف الظلّ: خفاء ماكر احذر مغبة فجاءته، قتام غامض لا يعوّل عليه،

كذلك السرّ الذي يتفاقم خباؤه بين كرّ وفرّ،

وحبّ وكراهية: تعب إضافيّ لا يعوّل عليه.

(2)

من يكذب مرة لن تحمد عقباه،

ويصير تلطّفه رياء لا يعوّل عليه.

كذلك الحوار الذي يستنسخ ترهاته

لا يصل إلى ضفة آمنة،

هو متاه لا يعوّل عليه.

(3)

الصديق الذي يبصق في الإناء الذي يأكل منه،

كمن يأكل الغلة ويشتم الملّة،

جاحد لا يعوّل عليه.

الصديق الذي يعطيك وجها ويحجب الآخر،

لغو نافل لا يعوّل عليه.

الصديق الذي يأخذ ولا يعطي، لا يعوّل عليه،

الصديق الذي لا تنل ملح مودته لا يعوّل عليه.

الصــديق الذي ينثر فضــته على الضــوء لكي يغوي أبصــار الآخرين، نزق مختال بنفسه، لا يعوّل عليه.

(4)

الطريق التي لا تهبكَ إشارات عناوينها؛

ضياع لا يعوّل عليه.

(5)

حاطب الليل الذي

يترك يده طليقة لشراك المجهول،

لا يعوّل عليه.

(6)

القبر الذي لا يستر عورة صاحبه قتام خانق لا يعوّل عليه.

(7)

البئر التي لم يحكم غطاؤها الثقيل،

يظل فَمُها عرضة لما تحمله الريح،

هي حفرة سابل،

وماء لا يعوّل عليه.

فهرس المحتويات

- بين الوردة وتاريخها
- حياة الوهم
- حياة الماء
- سيدي عبد الجليل
- طفل في الريح
- مدونة الطير
- حياة الظل
- رؤيا نوم المستيقظ
- الملاك
- كأنك أعمى دعها تنتظر
- الطائر الأخضر
- نصف الجسد .. نصف الموسيقى
- فصد معلن لتاريخ الوله
- ذئب الدلالات

- أغادر خيالي تاركا نثر شوارع نبذته الأنساب
- يا أبوابها التي ....
- على طريقة ابن عربي

كتبت مقترحات كتاب "حياة الظل" في برلين.
خريف 2009 / شتاء 2010 م. ونشرت في حينها تباعا
بصحيفة الشمس الثقافي التي كانت تصدر عن المؤسسة
العامة للصحافة. ليبيا